الأزهر

كلمات عن الأئمة الأربعة

لفضيلة الإمام الأكبر الدكتور

محمد سيد طنطاوى

شيخ الأزهر

هدية مجلة الأزهر المجانية لشهر ربيع الآخر ١٤٣٠ هـ

الأزهر

كلمات عن الأئمة الأربعة

لفضيلة الإمام الأكبر الدكتور
محمد سيد طنطاوى
شيخ الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

لمحات من حياة الإمام أبى حنيفة النعمان رحمه الله

١ـ تمهيد

من رحمة الله ـ تعالى ـ بعباده، أن جعل من بينهم فى كل زمان ومكان، من هداهم ـ سبحانه ـ إلى صراطه المستقيم، ومنحهم العقل الراجح، والعزم الصادق، والنظر الثاقب والعلم النافع ـ والفهم السليم لأمور الدين والدنيا، والشجاعة الفائقة فى تبليغ ما أمرهم بتبليغه، بإخلاص، وقوة، وورع، وعفاف، وغيرة على الدين، وثبات على شريعة الحق.

ومن هؤلاء الأخيار، أصحاب الهمم العالية، والأفكار القيمة، والاجتهادات المستنيرة الإمام أبوحنيفة، فقيه العراق، وإمام أهل الرأى، ومخ العلم.

والإمام أبوحنيفة اسمه: النعمان بن ثابت وكنيته أبوحنيفة، لأنه كما يقول بعض المؤرخين كان يحمل معه

أوراقه وأقلامه والدواة التى بداخلها الحبر، فكنى بأبى حنيفة لأن الدواة تسمى حنيفة بلغة بعض أهل العراق.

ولد - رحمه الله - بالكوفة سنة ٨٠ هـ، من أسرة فارسية مشهورة، وأبوه ثابت كان من الذين دخلوا فى الإسلام، وكان تاجرا ناجحا، وله سمعة طيبة بين أهل بلده.

يروى أنه التقى بالإمام على - رضى الله عنه - فسر به الإمام، ودعا له ولذريته بالخير والبركة، ولعل هذه الدعوة كان لها أثرها الطيب فى حياة أبى حنيفة، صاحب المناقب المتعددة.

***

٢- نشأته

نشأ أبو حنيفة - رحمه الله - فى بيت ميسور الحال، فأبوه كان يشتغل بالتجارة وكان معروفا بصدقه وأمانته..

وأمه كانت سيدة تقية نقية حريصة على معرفة الأحكام الشرعية، وعلى العمل بها دون تقصير أو تباطؤ.

كانت تأمره - أحيانا بأن يذهب بها إلى أحد العلماء الثقاة لكى تسأله عن حكم شرعى فى مسألة تتعلق بها فكان يطيعها ولا يتردد فى تلبية طلبها، وكان - رحمه الله - يرى أن طاعتها سبب من أسباب نجاحه فى حياته.

وكان منذ نشأته يمتاز بحسن الطلعة، وبجمال الملبس

ويتحليه بمكارم الأخلاق، وبعده عن اللهو واللغو.

وبعد وفاة أبيه، انصرف إلى الاشتغال بالتجارة، وكانت تجارته فى الثياب، وكان ماهرا وأمينا فى تجارته، وراجت تجارته وأحبه الناس لصدقه، واتباعه اليسر فى بيعه وفى شرائه، وحرصه على أن يبين للمشترى بأمانة ما يتعلق بالسلعة التى يريد شراءها.

وقد ذكر المؤرخون وهم يتحدثون عن مناقبه خلال اشتغاله بالتجارة، أنه كانت عنده ثياب فيها بعض العيوب، فقال لشريكه: عليك إذا جاءك من يطلب هذه الثياب أن تذكر له ما فيها من عيوب، ولكن شريكه نسى ذلك، وباعها بسعر الثياب التى لا عيوب فيها.

وعندما عرف ذلك الإمام أبوحنيفة حاول أن يعرف المشترى، ولكنه لم يوفق لذلك، فما كان منه إلا أن تصدق بالثمن جميعه.

وقد استمر الإمام أبوحنيفة فى اشتغاله بالتجارة، دون أن يصرفه اشتغاله بالعلم عن ذلك إلى أن لقى ربه ـ عزوجل ـ.

***

٣ ـ طلبه للعلم

للرجال الأخيار صفات ومناقب تميزهم عن غيرهم، ومن هذه الفضائل حبهم للعلم منذ الصغر.

ومن هؤلاء الأخيار الإمام أبوحنيفة، الذى جمع منذ صباه بين اشتغاله بالتجارة، وعشقه للدين وللعلم.

وقد ذكر المؤرخون له، أنه بدأ حياته بحفظ القرآن الكريم، كما ذكروا أنه أخذ القراءة عن الإمام عاصم أحد القراء السبعة، والمتوفى بالكوفة سنة ١٢٧ هـ.

وكان إلى جانب حفظه للقرآن الكريم، يشارك غيره فى الاستماع إلى مجالس علم الكلام وعلم الفقه، ويناقش - أحيانا - من يسمع منه بذكاء وفطنة وأدب.

ويروى عنه أنه قال: مررت يوما على الإمام الشعبى وهو جالس فدعانى، وقال لى: إلى من تختلف؟ فقلت له أختلف إلى السوق.

فقال لى: لم أقصد الاختلاف إلى السوق، ولكنى أقصد الاختلاف إلى العلماء.

فقلت له: أنا قليل الاختلاف إليهم.

فقال لى: لا تغفل، وعليك بالنظر فى العلم، وفى مجالسة العلماء، فإنى أرى فيك يقظة وحركة!!

قال - رحمه الله - فوقع قوله فى قلبى، فتركت - أى: فقللت - الاختلاف إلى السوق وأخذت فى العلم، فنفعنى الله - تعالى - بقوله.

وبقى - رحمه الله - يجمع فى وقته المبارك بين العلم النافع، وبين التجارة التى تغنيه عن طلب التطلع إلى ما فى أيدى الناس إلى أن لقى ربه.

***

٤ـ عصره وميوله السياسية

ولد الإمام أبوحنيفة سنة ٨٠ هـ وكانت ولادته فى عهد الخليفة الأموى عبدالملك بن مروان المتوفى سنة ٨٦ هـ سنة ٦٨٤م.

وقضى من حياته ثنتين وخمسين سنة فى ظل الدولة الأموية التى سقطت سنة ١٣٢هـ سنة ٧٥٠م.

وكانت هذه الدولة تتعصب لعروبتها، وبعض خلفائها كان يغالى فى هضم حقوق غير العرب.

فشاهد الإمام أبوحنيفة فى مطلع شبابه عصر خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبدالعزيز، وما كان عليه من عدل، ورحمة، واستقامة على الحق.

كما شاهد ما يقرب من عشرة من الخلفاء الأمويين، الذين فشا الظلم فى عهودهم. وتعرض هو لشىء من هذا الظلم والعدوان سنة ١٣٠هـ على يد «يزيد بن عمر بن هبيرة» أحد ولاة الخليفة مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية.

لقد أرسل هذا الوالى إلى أبى حنيفة، وطلب منه أن يتولى القضاء وأمورا أخرى تتعلق بالنواحى المالية.. فامتنع أبوحنيفة عن ذلك.

فأمر ابن هبيرة بضربه أياما متتالية ضربا شديدا حتى تورمت رأسه.

واستطاع بعد ذلك أن يهرب إلى مكة، فأقام بها زهاء ست سنين إلى أن زالت الدولة الأموية، وقامت الدولة العباسية، فعاد - رحمه الله - إلى موطنه بالكوفة.

واستقبل الإمام أبوحنيفة الدولة العباسية فى مطلعها بارتياح وكان على صلة طيبة بمؤسسها الأول أبوالعباس عبدالله السفاح - فلما جاء من بعده أخوه أبوجعفر المنصور ساءت علاقة الإمام أبى حنيفة به، لقسوته وظلمه وقتله لكل من يظن أنه ينافسه فى الحكم.

والخلاصة أن العصر الذى عاش فيه أبوحنيفة، كان يموج بالحركات الفكرية والدينية وكان مليئا بالاضطرابات والصراعات السياسية، وبالعصبيات القبلية، وبالتيارات التى لا تكاد تنتهى من الفتن، والدسائس والنزاعات.

وكان عصره - رحمه الله - إلى جانب ذلك زاخراً بالعلم والعلماء، وبالبحث وبالباحثين وبالجدل والمجادلين، وبمن

يتبعون منهج النقل، المتقيد بتوجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وبمن يتبعون منهج العقل الذى يضيف إلى تقبل النص واحترامه، الاجتهاد العقلى، والاستنباط الفكرى، والتعليل للأحكام.

وكان هذا المنهج العقلى يميل إليه أهل العراق، بعد أن اتخذته الدولة العباسية قاعدة لحكمها.

بينما كان المنهج النقلى يتبعه أهل الحرمين الشريفين مكة والمدينة وبلاد أخرى.

وما نزل بالإمام أبى حنيفة من أذى وظلم وعدوان، كان فى مجموعه ـ بسبب ميله إلى العلويين، وإلى الوقوف إلى جانبهم، وإلى الدفاع عنهم.

والعلويون هم الذين ينتسبون إلى الإمام على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ.

وعندما خرج أحد أحفاد الإمام على وهو الإمام زيد بن على بن زين العابدين بثورته على الخليفة هشام بن عبدالملك سنة ١٢١هـ، وسئل الإمام أبوحنيفة عن ذلك قال: إن خروج الإمام زيد بن على خروج شرعي وينبغي أن يعان فيه.

وكان للإمام زيد بن على مكانة رفيعة فى نفس الإمام أبى حنيفة ـ رحمه الله ـ كما كان لآل البيت جميعا محبة

خالصة فى قلبه، وكانت له صلات علمية بمحمد الباقر المتوفى سنة ١١٤هـ وبابنه جعفر الصادق المتوفى ١٤٨هـ وكان الإمام أبوحنيفة يقول عن جعفر الصادق «والله ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد الصادق».

وعندما تولى أبوجعفر المنصور الخليفة العباسى الثانى الحكم سنة ١٣٦هـ ورأى أن هوى الإمام أبوحنيفة ليس معه، وإنما مع العلويين، حبسه وأساء إليه.

ولقد كان الإمام أبوحنيفة خلال دروسه ينتقد حكم أبى جعفر من وقت لآخر لبطشه بمن يخالفه، ولكن بأسلوب لا يفهمه سوى تلاميذه المخلصين.

وكان من بينهم «زفر بن الهزيل» المتوفى سنة ١٥٨هـ فقد قال له: «أراك لست منتهيا حتى توضع الحبال فى رقابنا».

***

٥ ـ شيوخه

كان من أبرز شيوخ الإمام أبى حنيفة الذين تلقى عنهم العلم: حماد بن أبى سليمان الأشعرى ـ فقيه الكوفة ـ المتوفى سنة ١٢٠هـ فقد تلقى أبوحنيفة الفقه عن حماد، وهو فى الثانية والعشرين من عمره، وظل يلازمه إلى أن بلغ الأربعين.

ولقد قال عن شيخه حماد بن أبى سليمان : «كنت فى معدن العلم والفقه، فجالست أهله ولازمت فقيها من أفقه الفقهاء» ولعله يريد من هذا الكلام النفيس، أنه عاش فى بيئة علمية زاخرة بما ينفع من ألوان المعرفة والثقافة، والبحث والنظر، وأنه كان يخالط ويناقش من هم أهل للتعمق والرسوخ فى صنوف العلم النافع، وأنه لازم فقيها جليلا ما يقرب من عشرين سنة استفاد منه وأفاد.

وعندما التقى به أستاذه حماد بن أبى سليمان قال له : (ما جاء بك ؟) قال : (تعلم العلم).

ورأى فيه أستاذه النجابة والذكاء وسعة الأفق، فأمره (أن يجلس بإزائه) واستمر على هذه الجلسة عشر سنوات يسمع ويناقش، ويجادل ويحاور.

وغاب شيخه حماد بن أبى سليمان عن المجلس شهورا، فسأله ابنه بعد أن حضر : يا أبى على أى الأشياء كنت تشتاق فى غيبتك عنا ؟ فقال : كنت أشتاق لرؤية أبى حنيفة، ولو أمكننى ألا أرفع الطرف عنه لفعلت.

وكان يسهر مع جماعة من إخوانه فى بيت أستاذه حماد يتدارسون العلم، وكان للشيخ ديك يصيح من أول الليل، فكان الشيخ ينهى مجلسه بصياح هذا الديك، فكان أبوحنيفة يقول : «يا لك من ديك قبحك الله، قطعت حديثنا. إن شر الديكة ما صاح فى أول الليل».

٦ ـ مجلسه للتدريس

وبعد وفاة شيخه حماد، جلس أبوحنيفة وهو فى الأربعين من عمره مجلس شيخه بمسجد الكوفة وأخذ يدارس تلاميذه ما يعرض له من فتاوى، وما يبلغه من قضايا ويقيس الأشياء بأشباهها، والأمثال بأمثالها، بعقل متفتح مستقيم، ومنطق قويم، حتى وضع تلك الطريقة الفقهية التى اشتق منها المذهب الحنفى.

***

٧ ـ تلاميذه

وكان من تلاميذه النجباء الذين دونوا مذهبه، ونشروا علمه وفقهه: أبويوسف يعقوب بن إبراهيم المتوفى سنة ١٨٢هـ والذى تولى القضاء للخلفاء: المهدى والهادى والرشيد، والذى كتب كتبا كثيرة، من أشهرها كتاب «الخراج» الذى وضعه بتكليف من هارون الرشيد.

ومن تلاميذ أبى حنيفة ـ أيضا ـ محمد بن الحسن الشيبانى ـ المتوفى سنة ١٨٩هـ، وقد جلس ليتعلم من شيخه زمنا طويلا، ولقد لحق أبوحنيفة بربه والشيبانى هذا كان فى العشرين من عمره تقريبا، مما يدل على تبكير نبوغه، وعلو همته، وعظم استعداده للتفقه ومدارسة العلم.

وقد تولى القضاء، وألف كثيرا من الكتب منها: المبسوط، والجامع الكبير، والجامع الصغير.

ومن تلاميذ أبى حنيفة ـ أيضا ـ زفر بن الهزيل المتوفى سنة ١٥٨هـ وقد سبق أبا يوسف ومحمد فى تلقى العلم عن أبى حنيفة، وكان أكثر تلاميذه قياسا، وكان له الفضل فى نشر آراء شيخه بلسانه.

***

٨ـ معاملته لتلاميذه

وكان الإمام أبوحنيفة ـ رحمه الله ـ يعامل تلاميذه كنظراء وأصدقاء، ويعطيهم كل نفسه، حتى لقد كان يقول لهم: «أنتم مسار قلبى وجلاء حزنى».

وكانت طريقته فى درسه تشبه أن تكون دراسة له لا إلقاء دروس على تلاميذ، فالمسألة من المسائل تعرض له، فيلقيها على تلاميذه، ويناقشهم فى حلها، وكل واحد منهم يدلى برأيه بحرية تامة، وقد يعارضونه فى اجتهاده ورأيه، إلا أنه فى النهاية يصل معهم إلى الحل الأمثل، ويبدى رأيه بكل تواضع وتؤدة وثبات، ويقول لمن تجاوز حدوده فى المحاورة والمناظرة: «اللهم من ضاق بنا صدره، فإن قلوبنا قد اتسعت له».

وكان يقول (رأينا هذا أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاءنا بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب).

ويقول: (علمنا هذا رأى فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه).

وكان يقول: (من تعلم العلم للدنيا حرم بركته ولم يرسخ فى قلبه، ومن تعلم للدين بورك له فى علمه ورسخ فى قلبه، وانتفع المقتبسون منه بعلمه).

وكان يقول: (عفا الله عمن قال فينا مكروها، ورحم الله من قال فينا جميلا).

***

٩ـ من وصاياه لتلاميذه

منح الله ـ تعالى ـ الإمام أبا حنيفة ـ رحمه الله ـ عقلا سليما، وفطرة نقية، وعلما فياضا، سخره لخدمة الحق والفضائل، ولنصيحة غيره بوجوب التحلى بمكارم الأخلاق، وأعانه على كل ذلك تجاربه الكثيرة بتقلبات الأيام، وبأحوال الناس، سواء أكانوا من الرؤساء أم من المرءوسين.

وكان فى دروسه مع تلاميذه يحرص على أن يوجههم إلى الإصلاح، ويوصيهم بوصايا حكيمة تجعلهم ـ بمشيئة الله ـ تعالى ـ ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه.

ومن بين الوصايا الحكيمة التى وصى بها تلاميذه، تلك الوصية التى وصى بها تلميذه الأكبر الإمام أبا يوسف يعقوب ابن إبراهيم المتوفى سنة ١٨٢هـ، و هى وصية طويلة اشتملت

على خير الطرق للمعاملة مع الرؤساء والمرءوسين، والأغنياء والفقراء كما اشتملت على وجوب الحرص على طاعة الله - عز وجل - وعلى أداء التكاليف الشرعية وعلى الإكثار من التزود بتقوى الله وبالعلم النافع ومن أقواله فى هذه الوصية:

«يا يعقوب»:

«عليك بتقوى الله - تعالى - وأداء الأمانة، والنصيحة لجميع الخاصة والعامة ولا تستخف بالناس».

واشتغل بالعلم وإن بقيت عشر سنين بلا كسب ولا قوت، فلا تعرض عن العلم، فإنك إن أعرضت عنه كانت معيشتك ضنكا، فقد قال - تعالى -:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾

(طه: ١٢٤)

وقال - سبحانه -:

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾

(طه: ١١٤)

وكن - يا يعقوب - لله - تعالى - فى سرك كما أنت له فى علانيتك، وأعلم أنه لا يصلح أمر العالم إلا بأن يجعل سره كعلانيته..

وراقب نفسك، ولا تتبع الناس فى خطاياهم، بل اتبعهم

فى صوابهم.. وإذا دخلت على قوم كبار فلا تترفع عليهم ما لم يرفعوك، لئلا يلحق بك منهم أذى. وإذا كنت فى قوم فلا تتقدم عليهم فى الصلاة ما لم يقدموك على وجه التكريم.

يا يعقوب: وقر السلطان، وإياك والكذب بين يديه، ولا تدخل عليه فى كل وقت وفى كل حال، إلا إذا طلبك لحاجة علمية، فإنك إن أكثرت الاختلاف إليه، صغرت منزلتك فى عينه، فكن من السلطان كما أنت من النار، تنتفع بها وتتباعد عنها.. ولا تواصل أولياء السلطان وحاشيته، ليكون محلك وجاهك باقيا..

ولا تتكلم بين يدى العامة إلا بما تسأل عنه.. ولا تظهر أسرار الناس.. ومن استشارك فى شىء فأشر عليه بما تعلم أنه يقربك إلى الله ـ تعالى ـ.

واذكر الموت، واستغفر لأساتذتك ولمن أخذت عنهم العلم، وداوم على تلاوة القرآن ولا تنسنى من صالح دعائك، واقبل هذه الموعظة منى، وإنما أوصيتك لمصلحتك ومصلحة المسلمين..»

هذا طرف من وصية طويلة أوصى بها الإمام أبوحنيفة تلميذه الأكبر أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم الذى صار فيما بعد قاضى القضاة، وصاحب كتاب «الخراج» المشهور.

وهى وصية فيها الكثير من التوجيهات النافعة، والإرشادات القويمة التى لها وزنها فى شئون الدين والدنيا.

١٠ـ فقهه

والدارس لمذهب الإمام أبى حنيفة بتعمق، يراه صورة واضحة لصلاحية الفقه الإسلامى، لإعطاء الأمة ما تحتاج إليه من أحكام فى كل شئون الدين والدنيا، وذلك لأن الإمام ـ رحمه الله ـ قد اعتمد فى تأسيس مذهبه على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والإجماع، والقياس، والاستحسان، فصار باتباعه لهذا المنهج متمكنا من الاجتهاد واستنباط الأحكام فى حدود قواعد الشريعة.

وكان يقول: «إنى آخذ بكتاب الله، فما لم أجد فبسنة رسول الله ﷺ فما لم أجد أخذت بقول أصحابه، آخذ بقول من شئت منهم، وأترك قول من شئت منهم، ولا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم».

وكان يقول أيضا: «إذا جاءنا الحديث عن رسول الله ﷺ أخذنا به، وإذا جاءنا عن الصحابة تخيرنا، وإذا جاءنا عن التابعين زاحمناهم، فهم رجال ونحن رجال».

ومعنى هذا أنه كان ـ رحمه الله ـ يخضع فى مذهبه للقرآن والسنة، ويقارن بين أقوال الصحابة ويختار من بينها ما يرتضيه، وأما أقوال التابعين من أمثال إبراهيم النخعى والحسن البصرى، وابن سيرين، وسعيد بن المسيب.. فهو

يرى أن من حقه أن يوافقهم أو يخالفهم حسب اجتهاده؛ لأنه نظيرهم، وله أن يجتهد مثل ما اجتهدوا.

***

١١ ـ اجتهاداته

وقد أقام اجتهاداته ـ رحمه الله ـ على أصول ثابتة قويمة، من أهمها: التيسير والسماحة، واحترام الكرامة الإنسانية، ورعاية المصلحة العامة فى حدود ما أحله الله ـ تعالى ـ.

وهاك نماذج من اجتهاداته التى تدل على عمق فقهه، وعلى سماحة نفسه، وعلى تقديره العظيم لحرية الإرادة فى نطاق قواعد الشريعة..

فبالنسبة للوضوء هو يرى أن فرائض الوضوء أربعة، بينها الله ـ تعالى ـ فى قوله: تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ ﴾ (المائدة: ٦)

ويرى أن النية من باب السنة وليست فى فرائض الوضوء، ومن أدلته أن الوضوء وسيلة للصلاة، وليس مقصودا لذاته، والنية شرط مطلوب فى المقاصد لا فى الوسائل.

بينما يرى جمهور الفقهاء، أن النية فرض فى الوضوء، ولهم أدلتهم التى منها قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات..».

وكان يرى أن المسلم إذا كان فى ليلة مظلمة، وأراد الصلاة واشتبه عليه أمر تعيين «القبلة» وصلى إلى غير جهة القبلة، بعد أن تحرى جهده، صحت صلاته، حتى ولو ظهر له فيما بعد أنه أخطأ فى اجتهاده، ومن حججه أن المصلى قد أتى بما فى وسعه.

ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، بينما يرى غيره أن المصلى إذا ظهر له أنه قد أخطأ فى القبلة أعادها من جديد.

وكان يرى أن زكاة الفطر يجوز إخراج القيمة لأنها قد تكون أنفع للفقير، بينما غيره يرى أن صدقة الفطر لا تصح إلا من غالب قوت البلد كالقمح أو الشعير، ولا تجزىء القيمة لأن النص أوجب ذلك.

وكان يرى أن المرأة العاقلة البالغة، لها الحق فى مباشرة عقد زواجها بنفسها بكرا كانت أو ثيبا، وأن من باب الاستحباب أن تكل عقد زواجها لوليها، صونا لها عن التبذل إذا تولت العقد بمحضر من الرجال الأجانب عنها، وليس لوليها حق الاعتراض عليها إلا إذا زوجت نفسها من غير كفء لها، أو كان مهرها أقل من مهر مثلها.

ومن حججه: كما أنها من حقها أن تستقل بعقد البيع

والشراء وغيرهما، فمن حقها أيضا ـ أن تستقل بعقد زواجها؛ إذ لا فرق بين عقد وعقد، وأن الأحاديث التى تشترط الولاية فى الزواج تحمل المرأة على ناقصة الأهلية.

بينما يرى جمهور الفقهاء أن المرأة لا يصح لها أن تزوج نفسها أو غيرها؛ لأن الزواج لا ينعقد بعبارتها، إذ أن الولاية شرط فى صحة العقد، وأن العاقد هو الولى، وأن الأحاديث النبوية التى صرحت بأنه لا نكاح إلا بولى، يحمل النفى فيها على الصحة، فيكون الزواج بغير ولى للمرأة غير صحيح.

وكان يرى أن لا يجوز الحجر على السفيه ـ أى: المبذر الذى لا يحسن التصرف فى ماله ـ متى بلغ عاقلا، إلا أن يكون مفسدا لماله، فإذا كان كذلك، منع من تسليمه المال إليه حتى يبلغ خمسا وعشرين سنة، فإذا بلغها سلم المال إليه بكل حال، سواء أكان مفسدا أم غير مفسد؛ لأنه متى بلغ هذه السن عليه أن يتحمل نتائج تصرفاته، والحجر عليه إهدار لآدميته.

ويرى جمهور الفقهاء وجوب الحجر على السفيه المضيع لماله، سواء أكان صغيرا أم كبيرا..

هذه نماذج محدودة من اجتهادات الإمام أبى حنيفة، وما أكثر اجتهاداته التى تدل على حبه للتيسير، وتقديره للحرية الإنسانية، وللكرامة الذاتية، وهى اجتهادات

جديرة بأن تجعله مستحقا للقب «إمام أهل الرأى» و«مخ العلم» ولا عجب فقد كان ـ رحمه الله ـ غواصا إلى لباب العلم، وقد كان من مميزاته أنه لم يصاحب أهل الرأى من الفقهاء وحدهم، بل تعرف بجوار ذلك إلى آراء مختلف الفقهاء والمحدثين والمفسرين واستفاد منهم واستفادوا منه، وكتب الله ـ تعالى ـ لمذهبه القبول والذيوع والانتشار ببركة إخلاصه لدينه، وحسن صلته بخالقه، وورعه الذى كان مضرب الأمثال وصبره الجميل على الأذى والاضطهاد، وصدعه بكلمة الحق دون أن يخشى أحدا إلا الله وفهمه السليم لأمور الدين والدنيا..

***

١٢ـ صفاته ومناقبه

رزق الله ـ عزوجل الإمام أبا حنيفة جملة من المواهب العظيمة والمناقب الكريمة والخصال الحكيمة.

منها: أنه كان سعيه مشكورا فى دنياه عن طريق صدقه وأمانته فى تجارته التى رزقه الله - تعالى - منها ما يكفيه ويغنيه عن التطلع إلى دنيا غيره مهما كان شأن هذا الغير، بل إنه ـ رحمه الله ـ كان كثير العطاء والعون للمحتاجين.

ومنها: أنه كان من عشاق العلم، ومن الحريصين على

مجالسة العلماء، وعلى مراجعتهم والتعلم منهم وتعليمهم، مع جودة التفكير، وحسن استنباط الأحكام.

قال عنه الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ: الناس عيال فى الفقه على أبى حنيفة.

وقال عنه النضر بن شميل: كان الناس نياما عن الفقه، حتى أيقظهم أبوحنيفة بما فتقه، وبينه، وعلمه وعلمه.

ومن مناقبه ـ رحمه الله ـ أنه كان يحب المظهر الحسن، والهيئة الجميلة، والرائحة الطيبة.

وكان يحب أن يرى غيره على هذه الصورة الوضيئة، وحدث أن رأى يوما أحد جلسائه فى ملابس رثة، فانفرد به وأعطاه ألف درهم ليشترى بها ثيابا لائقة، فقال له الرجل: إنى موسر وعندى من المال الكثير!!

فقال له معاتبا أما بلغك قول النبى ﷺ: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» فعليك أن تصلح هيئك، حتى لا يفتن بك صديقك.

كذلك من مناقبه ـ رحمه الله ـ أن الله ـ تعالى ـ منحه ذكاء وافرا، وفطنة نادرة وبديهة حاضرة للاستشهاد بها فى الهداية إلى الحق.

التقى به نفر من الملحدين الذين لا يعترفون بوحدانية

الله ـ عزوجل ـ ولا بوجوده فقال لهم : ما تقولون فى رجل يقول لكم : إنى رأيت سفينة مليئة بالرجال والنساء والأحمال، وقد أحاطت بها العواصف والأعاصير من كل جانب وهى مع كل ذلك تسير وحدها بلا قائد يقودها، فهل يجوز ذلك فى العقل ؟

فقالوا جميعا : لا، فهذا شىء لا يقبله العقل.

فقال لهم : يا سبحان الله ! ! إذا لم يجز ذلك فى العقل، فكيف جاز لكم فى هذا الكون الملىء فى بره وبحره وجوه بالمخلوقات دون خالق له يديره ويسيره بهذا النظام العجيب ! فبهتوا ولم يستطيعوا أن ينطقوا بأى جواب.

ومن ذكائه ـ رحمه الله ـ أنه كان يحسن التخلص من المواقف المحرجة بأيسر الأجوبة.

جاءه رجل من الخوارج الذين ينكرون التحكيم الذى حدث بين على ومعاوية ـ رضى الله عنهما ـ وقال له : تب مما أنت فيه ! ! فقال له أبوحنيفة ومن أى شىء أتوب ؟ فقال له الخارجى من رضائك بتجويز الحكمين.

فقال له أبوحنيفة : هل تقبل أنت أن تناظرنى فى هذا الموضوع ؟ فقال له الخارجى : قد قبلت.

فقال له أبوحنيفة : فمن ترضاه أن يحكم بينى وبينك إذا

اختلفنا؟

فرد عليه الخارجي بقوله: أجعل أنت من شئت ليحكم بيني وبينك إذا اختلفنا.

وكان مع الخارجي صاحب له، فالتفت الإمام أبوحنيفة إلى هذا الصاحب وقال له: اقعد فاحكم بيننا فيما نختلف فيه..

وسر الخارجي بذلك، فقال له أبوحنيفة: أترضى بصاحبك هذا أن يكون حكما بيني وبينك متى اختلفنا؟ فقال له الخارجي: نعم

فقال له الإمام أبوحنيفة: فأنت بذلك قد أجزت التحكيم!! فانكسر الخارجي ولم يأت بجواب.

وحسبنا في الاستشهاد بذكاء أبي حنيفة، وبحضور حجته، أنه دخل ذات يوم على الإمام مالك فوقره الإمام مالك واحترمه وأكرمه.

وعندما خرج الإمام أبوحنيفة قال الإمام مالك لجلسائه: أتدرون من هذا؟ قالوا: لا، قال: إنه النعمان، لو قال هذه الأسطوانة ـ أى السارية التي بالمسجد ـ إنها من ذهب لخرجت كما قال.

ومن مناقب الإمام أبى حنيفة ـ رحمه الله ـ أن الله ـ تعالى ـ رزقه ضبط النفس ورباطة الجأش، وهدوء الطبع، والصفح عمن أساء إليه، لقد سبه أحد الناس وقال له: يا مبتدع يا

زنديق !! فرد عليه بقوله : غفر الله لك ، الله يعلم منى خلاف ذلك ، وإنى ما عبدت سوى الله ، ولا أرجو إلا عفوه ، ولا أخاف إلا عقابه .

وذكر المؤرخون لسيرة الإمام أبى حنيفة ، أنه يوم من الأيام كان جالسا بالمسجد الجامع ببغداد ، يلقى درسه ، ومن حوله كثير من الناس ، فسقطت حية كبيرة فى حجره ، فخاف أكثر الحاضرين وانصرف ، ولكن الإمام أبا حنيفة مازاد على أن نفض الحية عن ردائه وجلس فى مكانه .

ومن مناقبه ـ رحمه الله ـ أنه كان رغم علمه الواسع ، ودقته فى الأحكام ، شديد التواضع ، لا يغتر برأيه ، ولا يتعصب لفكره ، وإنما يردد أمام تلاميذه قوله : «قولنا هذا رأى فمن جاءنا بأحسن منه ، فهو أولى بالصواب» .

ولقد قال له قائل : أيها الإمام ، هذا الذى تفتى به هو الحق الذى لا شك فيه !! فأجابه بقوله والله لا أدرى لعله الباطل الذى لا شك فيه .

وكان يقول لتلميذه الأكبر أبا يوسف : لا تتعجل فى الكتابة عنى فإنى قد أرى الرأى اليوم فأتركه غدا ، وأرى الرأى غدا فأتركه بعد غد .

ومن مناقبه ـ رحمه الله ـ أنه كان واسع المروءة ، يساعد

المحتاج بكرم وسخاء، ويحفظ حقوق جيرانه، ويهتم بشئونهم، حتى ولو أزعجوه بلهوهم وارتفاع أصواتهم، ذكر المؤرخون أنه كان له جار، يعمل ببعض الصناعات الرخيصة، وكان إذا عاد من عمله ليلا، تناول طعامه وشرابه، ثم أخذ فى الغناء بأعلى صوته، ويردد:

أضاعونى وأى فتى أضاعوا

ليوم كريهة وسداد ثغر

وفى يوم من الأيام انقطع الصوت المزعج لهذا الشاب فسأل عنه الإمام أبوحنيفة فعلم أنه محبوس.. فذهب أبوحنيفة إلى المكان الذى حبس فيه هذا الشاب، وتوسط فى الإفراج عنه فأجيب إلى طلبه، وأخذ الشاب معه وقال له: يا فتى هل أضعناك؟ فتأثر وقال: بل حفظت ورعيت، جزاك الله خيرا عن حرمة الجوار، ورعاية الحق وتاب الفتى ولم يعد إلى ما كان عليه من لهو وغناء.

ومن صفاته ـ رحمه الله ـ أن الورع فى أسمى صوره كان لباسه، وأن خشية الله ـ عزوجل ـ كانت مقصده وغايته، وكانت أقواله و أفعاله خالصة لوجه الله ـ تعالى ـ لا يقبل أجراً عليها.

ذكر المتحدثون عن تاريخه أن خلافا حدث بين أبى جعفر

المنصور وزوجته فاحتكما إلى أبى حنيفة، وكان الحق مع الزوجة فحكم لها..

فلما انصرف أرسلت إليه الزوجة بهدايا ثمينة، فلم يقبلها، وقال لمن أرسلته: بلغها دعائى لها، وقل لها: إن أبا حنيفة قد حكم بما يراه حقا شرعيا لها، وهذا واجب عليه، ولا يقبل على ما صنعه أجراً.

وكان يرى ـ رحمه الله ـ أن القاضى الذى يقبل الهدايا نظير قضائه يجب عزله؛ لأنه قد باع دينه فى نظير دنياه.

ولقد عاش الإمام أبوحنيفة حياته، جامعا بين الرزق الواسع الحلال فى الدنيا وبين العلم النافع والفقه المستنير، وبين العبادة الخاشعة لله ـ عزوجل ـ وحبه لقراءة القرآن الكريم و إتقان حفظه.

قال أحد العلماء عنه: «كان أبوحنيفة ـ والله ـ عظيم الأمانة، وكان الله ـ عزوجل ـ فى قلبه، جليلا كبيرا عظيما، وكان يؤثر رضا الله على كل شىء ولو أخذته السيوف فى الله لاحتمل».

وبلغ من حبه للقرآن الكريم، ومن تعظيمه له، أن ابنه «حماد» الذى سماه باسم شيخه ـ كان صبيا صغيراً فلما حفظه معلمه سورة «الفاتحة» فرح الإمام أبوحنيفة لذلك، وأعطى المعلم خمسمائة درهم، فدهش المعلم وقال له، أنا ما

فعلت شيئا كثيرا مع ابنك!!

فقال له أبوحنيفة: لا تستحقر ما علمته لولدى، والله لو كان معنا أكثر من ذلك لدفعناه إليك تعظيماً للقرآن.

والخلاصة أن الإمام أبا حنيفة كانت له مناقب جليلة، وصفات كريمة، جعلته فى الذروة بين العلماء، فقد اتصف بصفات العالم الحق، الثبت الثقة، الثاقب الفكر، الحاضر البديهة، الحريص على تقوى الله ـ تعالى ـ فى سره وعلانيته، المخلص فى طلب الحق، القوى الشخصية، الصبور فى الشدائد والمحن، الجامع لكل الفضائل التى تجعله ـ بمشيئة الله ـ تعالى ـ ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

***

١٣ ـ وفاته

لقد تعرض الإمام أبوحنيفة ـ رحمه الله ـ فى أواخر حياته لفتن كقطع الليل المظلم فصبر على الأذى بعزيمة لا تعرف الكلل أو الضعف.

عرض عليه أبوجعفر المنصور القضاء فأبى، وأقسم أبوجعفر عليه أن يقبل، فأبى وقال: إنى لا أصلح للقضاء، فقال له: أبوجعفر المنصور كذبت. فقال له: قد حكمت علىَّ ألا أصلح

لأنك نسبتني إلى الكذب، والقاضي لا يكون كاذباً.

فأمر بحبسه وأوذى في حبسه بألوان من الأذى فصبر.

رفض أبوحنيفة القضاء وقالت له أمه وقد رأت ما نزل به من اضطهاد: يانعمان، إن علماً ما أفادك سوى الضرب والحبس لحقيق بك أن تنفر عنه.

فقال لها يا أمي: «أنا لو أردت الدنيا لوصلت إليها، ولكني أردت أن أصون العلم الذي أمرني الله بصيانته».

لقد مضى الذين أساءوا إلى الإمام أبي حنيفة - رحمه الله - ونسى كثير من الناس أسماءهم، لكن اسم أبي حنيفة مازال يذكره الناس، ويذكرون فقهه وعلمه في شئون الدين والدنيا.

وأحس - رحمه الله - بدنو الموت فسجد لله - تعالى - وصعدت روحه الطاهرة وهو ساجد في شهر رجب سنة ١٥٠هـ وكأنما كان يسابق ملك الموت إلى لقاء الله في الصلاة وبلغ عدد الذين حملوه إلى قبره عشرات الآلاف..

فرضي الله عنه وأرضاه، وألحقنا به في زمرة الصالحين..

***

الإمام مالك -رحمه الله

١- الإمام مالك بن أنس، هو ثانى الأئمة الأربعة، الذين كتب الله -تعالى- لمذاهبهم وفقههم الانتشار والذيوع فى مشارق الأرض ومغاربها، ببركة إخلاصهم لخالقهم، وحرصهم على تبليغ العلم النافع لغيرهم، وتحملهم المشاق والمتاعب من أجل أداء التكاليف التى كلفتهم بها شريعة الإسلام، والتى أتاهم بها الرسول -عليه الصلاة والسلام-.

***

٢- نشأته :

وقد كانت ولادة الإمام مالك -رحمه الله- بالمدينة المنورة ٩٣هـ أى بعد مولد الإمام أبى حنيفة بثلاث عشرة سنة، وكانت وفاته بعد وفاة الإمام أبى حنيفة -رحمه الله- بتسع وعشرين سنة.

والإمام مالك هو إمام دار الهجرة، وإمام أهل الحجاز، وأحد تابعى التابعين، وإليه انتهى فقه المدينة المنورة، وفقه فقهائها السبعة، وقد قضى حياته كلها بها، لم يفارقها إلا لحج أو لعمرة، وعندما دعاه بعض الخلفاء كى يرحل إلى بغداد، فيحيا فى ظل الخلافة، وتحت ألوية الحياة الرغدة، أبى ذلك، وردد قول

سيدنا رسول الله ﷺ : «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون».

ولقد بلغ من توقيره للرسول ﷺ أنه كان يستحى أن يركب أى دابة فى المدينة ويقول: إنى لأستحى أن أركب دابة تطأ بحافرها أرضا يضم ترابها جسد سيدنا رسول الله ﷺ».

***

٣ - أسرته :

وقد انحدر الإمام مالك من أسرة كريمة، فهو مالك بن أنس ابن مالك بن أبى عامر بن عمرو..

وكان جده الثانى «أبو عامر بن عمرو» من أصحاب رسول الله ﷺ الذين شهدوا معه الغزوات جميعها سوى غزوة بدر، وكان جده الأول «مالك بن أبى عامر» من كبار التابعين، الذين تلقوا العلم عن بعض الصحابة، وروى كثيرا من الأحاديث النبوية عن عمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله، وأم المؤمنين عائشة، وأبى هريرة -رضى الله عنهم-.

أما والده فكان من المحبين للعلم، ومن المشجعين لطلبه، وكان يشتغل بصناعة النبال، لكى يكتسب ما يغنيه عن سؤال الناس.

وأمه اسمها العالية بنت شريك الأزدية، وأبوه وأمه عربيان ينتسبان إلى قبيلة باليمن.

وقد نشأ الإمام مالك -رحمه الله- فى تلك الأسرة الكريمة التى كانت تشتغل بالحديث والفتيا، والتى كانت متوسطة الحال من حيث الغنى، إلا أنه -رحمه الله- فى مستقبل حياته أنعم الله -تعالى- عليه بنعم وفيرة، فكثر المال بين يديه، فأنفقه فى طاعة خالقه -عز وجل-.

***

٤ - عصره:

والعصر الذى كان يعيش فيه الإمام مالك، يشبه إلى حد كبير العصر الذى كان يعيش فيه الإمام أبوحنيفة، فقد ولد الإمام مالك فى عهد الوليد بن عبدالملك الأموى، وتوفى سنة ١٧٩هـ فى عهد هارون الرشيد العباسى، وشاهد خلال حياته الصراعات والفتن والحروب خلال أربعين عاما تقريبا عاشها مع الدولة الأموية إلى أن سقطت سنة ١٣٢هـ، كما شاهد قيام الدولة العباسية، ورأى ما جد فى المجتمع من ثقافات عربية وفارسية وهندية، كما رأى الصراعات بين العباسيين والعلويين، ورأى حركات الخوارج وما فيها من عنف وشجار، ورأى احتدام الجدل بين الفرق المختلفة، ورأى اختلاط الأجناس والعناصر فى المجتمع الإسلامى المترامى الأطراف، من عرب وفرس وروم وهنود، ورأى كيف نشأت أحداث ووقائع فى مجالات تتعلق بمختلف المعاملات بين الناس.

وهذه الأحداث وتلك الوقائع، لابد أنها تحتاج إلى رأى الدين، وحكم الشريعة، وفتوى المفتى، مما جعله -رحمه الله- يرقب هذه الأحداث والوقائع، ويقول رأيه فيها بكل شجاعة وحكمة واعتدال مستدلا على ما يقوله بكتاب الله -تعالى- وبسنة رسوله ﷺ وبآراء من سبقه من الفقهاء، وباجتهاده النابع من عقل سليم، ومن فكر قويم، ومن رعاية لمصالح الناس فى حدود الحق والعدل.

قال فضيلة شيخنا الإمام محمد أبى زهرة -رحمه الله- وهو يتحدث عن عصر الإمام مالك -رحمه الله- ولقد قسمت حياة مالك التى بارك الله فيها، قسمة تكاد تكون متساوية بين العهدين الأموى والعباسى، فقد عاش نحو أربعين سنة فى العصر الأموى، ونحو ست وأربعين فى العصر العباسى، فهو قد بلغ أشده عندما سقطت الدولة الأموية، وكان فى سن الرجولة الكاملة عندما استقر الأمر لبنى العباس.

وقد تكون عقله وجسمه فى العصر الأموى، لأنه بلغ فيه أشده وبلغ أربعين سنة فيه، وهذه السن كافية لتكون تفكيره وعاداته، وبلوغه مرتبة الإفادة بعد الاستفادة، والتثمير بعد التحصيل، وعلى ذلك نقول: إنه فى العصر المروانى كان يكون نفسه ويربيها، وفى العصر العباسى كان يكون التلاميذ ويغذيهم ويبادل الصحاب ثمرات الفكر، وما حصل من علم وحديث وسنة.

***

٥- شيوخه :

وقد عشق الإمام مالك -رحمه الله- العلم منذ صباه، وشجعته على ذلك أمه فقد كانت سيدة صالحة تقية، فأخذ يتلقى العلم من أهله بشغف وحرص منذ مطلع حياته.

وكلما تقدمت به السن أخذ يختار من يسمع منهم وهم كثرة، وكان يردد إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم، لقد أدركت سبعين ممن يقول : قال فلان : قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين، وأشار إلى مسجد الرسول ﷺ، فما أخذت عنهم، وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان به أمينا».

ومن أبرز شيوخه الذين تأثروا بهم : عبدالرحمن بن هرمز الأعرج المتوفى سنة ١١٧هـ فقد لازمه الإمام مالك لمدة سبع سنين، وتعلم منه التثبت فى الأخبار، ورأى فيه القدوة الحسنة للعالم الورع الذكى، وكان يقول : تعلمت من ابن هرمز قول لا أدرى، وينبغى أن يورث العالم جلساءه قول لا أدرى، فإن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذونه.

وأيضا من الشيوخ الذين تأثر بهم الإمام مالك : نافع مولى عبدالله بن عمر المتوفى سنة ١١٩هـ، وكان نافع من علماء الحديث الثقاة، وفى صحيح البخارى : أصح الأسانيد مالك

عن نافع عن ابن عمر ، ويسمى هذا الإسناد بالسلسلة الذهبية ، وكان الإمام مالك يقول : كنت إذا سمعت نافعا يحدث عن ابن عمر لا أبالى ألا أسمعه من غيره .

ويقول : كنت أحضر إلى نافع فى شدة الحر ، فأتحين خروجه دون أن يظلنى ظل ، فألازمه وأسأله ما الذى قاله ابن عمر فى كذا وكذا ، فيجيبنى ، وكان فيه حدة .

وهذا الكلام الذى قاله الإمام مالك -رحمه الله- فى شيخه نافع ، يدل على ما كان يبذله من تعب شديد فى طلب العلم ، إذ لم يمنعه الحر الشديد من الذهاب إلى منزل شيخه نافع وهو فى البقيع خارج المدينة ، يترقب خروجه من منزله ، ثم يسير فى صحبته إلى المسجد ، وبعد أن يهدأ نافع ، يبدأ مالك فى أسئلته له بكل أدب وأناة وصبر .

كذلك انتفع مالك بالعلم الذى تلقاه عن العالم الثبت الإمام محمد بن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٣هـ ، أحد الأئمة الأعلام ، وعالم الحجاز والشام ، والذى قال فيه عمر بن عبدالعزيز ، خامس الخلفاء الراشدين- لم يبق أحد أعلم بسنة ماضيه من ابن شهاب الزهرى .

ولقد كان الإمام مالك حريصا على الانتفاع بعلم الإمام محمد بن شهاب الزهرى ، كما انتفع من قبل بعلم شيخه عبدالرحمن بن هرمز ، وبعلم شيخه نافع ، فكان

يذهب إلى بيت ابن شهاب، ويترقب خروجه، ويذهب إليه حيث يتوقع فراغه، ليكون التلقى فى جو هادئ وحيث لا صخب للجماعة، فقد روى عن الإمام مالك أنه قال: شهدت العيد، فقلت هذا يوم يخلو فيه ابن شهاب، فانصرفت من المصلى، حتى جلست على بابه، فسمعته يقول لجاريته: «انظرى من بالباب، فنظرت، فسمعتها تقول: مولاك الأشقر، مالك. قال: أدخليه، فدخلت، فقال: ما أراك انصرفت بعد إلى منزلك، قلت: لا، قال: هل أكلت شيئا؟ قلت: لا، قال: أتأكل؟ قلت: لا حاجة لى فيه، قال: فما تريد؟ قلت: تحدثنى، قال لى: هات، فأخرجت ألواحى، فحدثنى بأربعين حديثا، فقلت: زدنى، قال: حسبك، إن كنت رويت هذه الأحاديث، فأنت من الحفاظ، قلت: قد رويتها. فجذب الألواح من يدى، ثم قال: حدث، فحدثته بها، فردها إلىَّ وقال: قم فأنت من أوعية العلم».

وهكذا كان الإمام مالك -رحمه الله- دءوبا فى طلب العلم، وقد صرف نفسه لتحصيله بكل جد ونشاط وصبر، وتحمل ما تحمل من متاعب من أجل حفظه وفهمه واستيعاب مسائله.

***

٦- حلقته :

وقد جلس -رحمه الله- للتدريس فى المسجد النبوى الشريف، وكان فى سن النضج، وكانت حلقته أوسع الحلقات..

ولم يجلس هذا المجلس الجليل المبارك، إلا بعد أن شهد له أهل العلم بأنه جدير بذلك، بل لقد كان يجلس ليستمع إليه بعض شيوخه، ومنهم: يحيى الأنصارى، وابن شهاب الزهرى.

وظل -رحمه الله- يعقد درسه فى المسجد النبوى الشريف، إلى أن أصيب بمرض اضطره إلى نقل درسه إلى بيته، وذلك قبيل وفاته بمدة قليلة.

وخلال إلقائه لدروسه التى امتدت لعشرات السنين، بالمسجد النبوى الشريف أخذ عنه العلم من أخذ من المسلمين، فقد كانوا يفدون لزيارة المسجد النبوى الشريف، من مشارق الأرض ومغاربها، فيسألونه عما خفى عليهم، فيجيبهم، وهو فى الوقت نفسه يستفيد من أحداث حياتهم، ويصدر الحكم الشرعى الذى يتناسب مع ظروفهم وبيئتهم فيعودون إلى بلادهم، وهم يرددون ما سمعوا، وينشرونه بين الناس، وبذلك كتب الله -تعالى- لآرائه وفقهه القبول والذيوع.

***

٧- مناقبه:

ولقد منح الله -تعالى- الإمام مالكا من الصفات والمواهب، ما جعل منه محدثا وفقيها يأخذ سمته فى الطريق المستقيم، والسير فى ضوء القرآن والسنة، وآثار السلف الصالح.

لقد منحه -سبحانه- ذاكرة واعية، فكان إذا استمع إلى شىء استمع إليه فى حرص، ووعاه وعيا تاما بسرعة ويقظة، حتى لقد قال له الزهرى: «يا مالك أنت من أوعية العلم، وإنك لنعم المستودع للعلم». ومنحه صبرا وجلدا ومثابرة من أجل تحصيل العلم، جعله يتحمل الصعاب والمتاعب والآلام، وكان يأخذ تلاميذه بذلك، فيحثهم على احتمال المشاق فى طلب العلم ويقول لهم: «من طلب هذا الأمر صبر عليه»، ومنحه الإخلاص للعلم، فهو لم يطلبه للتباهى أو التفاخر، بل طلبه لخدمة دينه وأمته، وكان يقول: «العلم نور لا يشع إلا فى قلب تقى خاشع».

ومنحه خالقه -عز وجل- فراسة المؤمن الذى ينظر بنور الله فكان -رحمه الله- نفاذا إلى بواطن الأمور، وإلى تفرس الأشخاص، وإلى حركات جوارحهم، ولحن أقوالهم، حتى لقد قيل فيه: كان فى مالك فراسة لا تخطىء.

ومنحه -سبحانه- فوق ذلك المهابة التى تجعل المستمع إليه يجله ويحترمه، وكان تلاميذه يستمعون إليه، وكأن على

رؤوسهم الطير، وكانت هيبته تنفذ إلى قلوب الحكام والأمراء والأغنياء والفقراء.

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾

(الجمعة : ٤)

كذلك كان الإمام مالك -رحمه الله- إيجابيا فى حياته، وكان يكره السلبية ويحتقرها، ومن مظاهر ذلك أنه كان حريصا على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وكان من أجل أداء هذه الفريضة، يعظ الخلفاء والأمراء والولاة، دون أن يخشى أحدا إلا الله.

دخل يوما على هارون الرشيد ووعظه، وذكره بأن عمر بن الخطاب كان ينفخ على النار فى عام الرمادة -أى: عام المجاعة- ثم يقول للرشيد: وقد رضى الله منكم بدون هذا».

ودخل عليه أحد الولاة ذات يوم، فمدحه أحد الحاضرين، فقال مالك لذلك الوالى: «إياك أن يغرك هؤلاء بثنائهم، فإن من أثنى عليك وقال فيك من الخير ما ليس فيك، أوشك أن يقول فيك من الشر ما ليس فيك.. ولقد قال ﷺ: «احثوا التراب فى وجوه المداحين».

وكان -رحمه الله- يحب الخلفاء العادلين، وقد بلغ من إعجابه بعمر بن عبدالعزيز، أن سائلا سأله عن حكم الله -تعالى- فى

الخارجين على الخلفاء: هل يجوز قتالهم؟ فقال مالك: «إن خرجوا على مثل الخليفة عمر بن عبدالعزيز فقاتلهم». فقال السائل: فإن لم يكونوا مثله؟ فأجابه الإمام مالك بقوله: «دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم، ثم ينتقم من كليهما».

***

٨ - مؤلفاته:

وللإمام مالك مؤلفات كثيرة من أشهرها: «الموطأ» وكلمة الموطأ معناها السهل الممهد، وسمى بذلك لأن الخليفة المنصور طلب من الإمام مالك أن يكتب كتابا فى الفقه يكون وسطا معتدلا، وقال له: «ضع للناس كتاب أحملهم عليه». -أى: أجعلهم يسيرون على ماجاء فيه-، وعندما راجعه الإمام مالك فى ذلك، قال له: ضعه فما أحد اليوم أعلم منك، فوضع الإمام مالك كتابه «الموطأ».

وعندما انتهى من تأليفه بعد أن مكث مدة طويلة فى جمعه، وأراد هارون الرشيد أن يعلقه على الكعبة تنويها به وجمعا للناس عليه لم يقبل الإمام مالك ذلك وقال له: «يا أمير المؤمنين، أما تعليق الموطأ فى الكعبة فإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا فى الفروع، وافترقوا فى البلدان، وكل عند نفسه مصيب.. وإن اختلاف العلماء رحمة من الله على هذه الأمة، كل يتبع ما صح عنده، وكل على هدى، وكل يريد رضا الله».

وإن الإنسان منا ليقف مبهورا أمام هذه الكلمات الحكيمة، التى تدل على صدق وإخلاص الإمام مالك -رحمه الله-.

***

٩- فقهه:

والإمام مالك -رحمه الله- لم يمنعه تقيده بالقرآن الكريم، وبالحديث النبوى الشريف وبأقوال السلف الصالح، من أن يكون له رأيه الواضح، واجتهاده السديد، وقد فصل الكلام فى هذه المسألة فضيلة شيخنا المرحوم محمد أبو زهرة فقال: ولقد صححنا فى هذه الدراسة خطأ وقع فيه الدارسون.. وهو ما شاع على الأقلام من أن «مالكا» فقيه أثر لا فقيه رأى، وبينا أن جرأة «مالك» على الرأى، لم تكن أقل من جرأة أبى حنيفة، وإن كان مقدار القياس فى فقهه أقل من مقدار الأقيسة فى فقه أبى حنيفة، وزكينا فى ذلك كلام ابن قتيبة فى المعارف عندما عد مالكا فى ضمن فقهاء الرأى، ولم يضعه فى فقهاء الحديث، وإن كان فى علم الحديث النجم اللامع، بل هو بحق أول من وطأه وثبته ومهده..

ويمتاز فقه الإمام مالك واجتهاده بالمرونة التى تتسع لوسائل الاستنباط، وباتجاهه فى جميع آرائه إلى تحقيق

المصلحة فى حدود الحق والعدل، وبرعايته وصيانته لأموال الناس وأعراضهم وأنفسهم، ويتشدد فى ذلك تشددا يخالف فيه كثيرا من الفقهاء، وهاك بعض الأمثلة من اجتهاده فيما يتعلق بحماية أعراض الناس وأموالهم وأنفسهم.

يرى -رحمه الله- أنه لا يشترط فى المقذوف البلوغ، وإنما يقام الحد على القاذف حتى ولو كان المقذوف فى عرضه صغيرا أو صغيرة، بينما جمهور العلماء يشترط فى المقذوف البلوغ..

وفيما يتعلق بجريمة الحرابة يرى الإمام مالك أن الحد لا يسقط عن المكلفين إذا اشترك معهم الصبيان أو ضعاف العقول، وإنما يقام الحد على المكلفين، لأن هذا الحد حق الله -تعالى- ولا ينظر فيه إلى الأفراد.

بينما يرى غيره أن الحد يسقط فى هذه الحالة عن المكلفين -أيضا- لأنه إذا سقط عن البعض سقط عن الكل.

ويرى -رحمه الله- أنه لا تشترط المجاهرة فى الحرابة، بل كل من أخاف غيره، وقطع الطريق، على أى نحو من الأنحاء، وبأية صورة من الصور، يعد محاربا ومستحقا لعقوبة الحرابة، بينما يرى الأحناف والشافعية والحنابلة أن المجاهرة شرط فى الحرابة، لأنهم إن أخذوا المال خفية فهم سراق، وإن اختطفوه وهربوا فهم منتهبون، ولا يعاقبون بعقوبة الحرابة.

ويرى -رحمه الله- أنه إذا أمسك رجل رجلا فقتله رجل آخر، وكان القاتل لا يمكن قتله إلا بالإمساك وكان المقتول لا يمكنه الهرب بعد الإمساك، فإنهما يقتلان، لأنهما شريكان، بينما يرى غيره أن القتل للقاتل فقط، أما الممسك بالمقتول فيعاقب بعقوبة أخرى سوى القتل.

والخلاصة أن اجتهادات الإمام مالك -رحمه الله- فيما يتعلق بالحدود، كانت اجتهادات رادعة، والقصد منها حماية أموال الناس وأعراضهم وأرواحهم حتى يعيشوا في أمان واطمئنان.

***

١٠ - وفاته:

لقد لحق الإمام مالك بربه -عز وجل- بعد أن عاش بالمدينة المنورة ستا وثمانين سنة، عمرها بالإيمان الصادق، وبالعلم النافع، وبالبر والتقوى، وكان له ثلاثة أبناء هم: محمد، وحماد، ويحيى، وبنت تسمى فاطمة كانت تحفظ «الموطأ» وكانت إذا عقد أبوها مجلسه في منزله، تجلس خلف الباب تسمع قراءة من يقرأ على أبيها الموطأ، فإذا أخطأ القارىء دقت فاطمة الباب، فيأمر أبوها القارىء بأن يعاود القراءة ويصحح الخطأ.

ومن العجيب أن ابنته نالت هذه المكانة العلمية، التى لم يظفر بها أخوتها الذكور، وكان الإمام مالك -رحمه الله- يتعجب من هذا التفاوت فى العلم، ويقول: «إنما الأدب أدب الله، هؤلاء أبنائى، وهذه ابنتى».

ولقد كان الإمام الشافعى يقول عنه: «الإمام مالك معلمى وأستاذى، ومنه تعلمنا العلم وما أحد أمن علىَّ من مالك، وجعلت مالكا حجة فيما بينى وبين الله -تعالى-».

ولقد ظل الإمام مالك فى قمته العالية إلى أن لقى ربه، يراسل الفقهاء والعلماء، ويكتب إليهم من موقع النور الذى استقر فيه، وهو المدينة المنورة.

وكان يرى أن من حقه عليهم أن يناصحهم وأن يناصحوه، وأن يحاورهم وأن يحاوروه.

لقد كتب إليه أحد العلماء يحضه على الاعتزال للعبادة وترك مجالسة الناس فرد عليه الإمام مالك ردا حكيما جميلا قال فيه: «إن الله -عز وجل- قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرب رجل فتح له فى الصلاة ولم يفتح له فى الصيام، وآخر فتح له فى الصدقة ولم يفتح له فى الجهاد..

ونشر العلم من أفضل الأعمال، وقد رضيت بما فتح الله لى من نشر العلم، وما أظن ما أنت فيه بأفضل مما أنا فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر.

وكانت الكتابة بين إمام دار الهجرة مالك بن أنس، وبين الليث بن سعد عالم مصر، فى أسمى درجات الحوار، وفى أرقى ألوان فروع العلم، وفى أروع وجوه الأدب الفقهى، والخطاب الدينى.

رحم الله الجميع، وألحقنا بهم فى زمرة الصالحين..

***

الإمام الشافعي - رحمه الله -

١ - تمهيد :

جاء في الحديث الشريف الذي أخرجه أبو داود والحاكم والبيهقي، عن أبي هريرة- رضى الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال : «إن الله- تعالى- يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها».

وقد ذكر المؤرخون أن الإمام أحمد بن حنبل- رحمه الله- عندما ذكر هذا الحديث الشريف قال : كان عمربن عبدالعزيز على رأس المائة الأولى، وأرجو أن يكون الشافعي على رأس المائة الثانية.

***

٢ - نسبه ونشأته :

والإمام الشافعي هو : محمد بن إدريس، بن العباس، بن عثمان، بن شافع، بن السائب بن هاشم، بن المطلب، بن عبد مناف، فهو يلتقي مع سيدنا رسول الله ﷺ في عبد مناف، وأمه كانت من قبيلة الأزد باليمن.

وكانت ولادته-على الراجح- بمدينة غزة سنة ١٥٠ هـ،

وهى السنة التى توفى فيها الإمام أبو حنيفة- بل بالغ بعضهم فقال: إن الشافعى ولد فى الليلة التى توفى فيها أبو حنيفة، لكى يقال: ولد إمام ومات إمام..

وقد توفى إدريس والد الإمام الشافعى، والشافعى لم يتجاوز السنتين من عمره، فانتقلت به أمه من غزة إلى مكة، خشية أن يضيع نسبه الشريف.

وقد اتفقت الروايات على أن الشافعى- رحمه الله- قد نشأ يتيما وفى أسرة فقيرة فى المال إلا أن هذه النشأة لم تمنعه وهو صاحب النسب الرفيع الشريف والهمة العالية، من أن يشق طريقه فى الحياة بقوة وعزة ونشاط، فقد حفظ القرآن الكريم فى سن مبكرة، ثم اتجه إلى حفظ الأحاديث النبوية الشريفة، وكان مع ألمعيته وحدة ذكائه وسرعة حفظه، يكتب ما يحفظه ثم اتجه بعد ذلك من مكة إلى البادية، فلزم قبيلة هذيل لكى يجيد اللغة العربية، فأجادها ونبغ فيها، حتى لقد قال فيه الأصمعى: «صححت أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له محمد بن إدريس».

وقد علق فضيلة أستاذنا المرحوم الإمام محمد أبوزهرة على هذه النشأة الفقيرة التى نبت فيها الإمام الشافعى فقال «والنشأة الفقيرة مع النسب الرفيع، تجعل الناشئ ينشأ على

خلق قويم، ومسلك كريم لأن علو النسب وشرفه، يجعل الناشئ منذ نعومة أظفاره، يتجه إلى معالى الأمور، ويتجافى عن صغارها، ويترفع عن الدنايا... ويسعى إلى المجد بهمة وجلد، ليرفع خسيسة الفقر، وذل الحاجة.

ثم إن نشأته فقيراً مع ذلك الطموح بنسبه، يجعله يحس بإحساس الناس، ويندمج فى أوساطهم، ويشعر بشعورهم، وذلك أمر ضرورى لكل من يتصدى لعمل يتعلق بالمجتمع، وما يتصل به فى معاملاته، وفى تنظيم أحواله، وتوثيق علاقاته.

وإن تفسير الشريعة واستخراج حقائقها، والكشف عن موازينها ومقاييسها، يتقاضى الباحث ذلك.

وإن هذا الكلام النفيس الذى قاله شيخ مشايخنا الإمام أبوزهرة- رحمه الله- ليذكرنا بالحكمة المأثورة عن سيدنا يوسف- عليه السلام- فقد سأله سائل: لماذا تجوع يوما وتشبع يوما، وأنت الأمين على خزائن أرض مصر؟

فأجابه بقوله: «أخاف أن أشبع فأنسى الجائعين».

ويبدو أن حياة الإمام الشافعى فى مطلع حياته فى البادية، جعلته يتخير من عادات أهلها مايراه حسنا، فقد كان يقول بعد فراقه للبادية: كانت همتى فى شيئين: فى الرمى والعلم، فصرت فى الرمى بحيث أصيب من عشرة عشرة، ثم سكت

فلم يتحدث عن علمه تواضعا، فقال له بعض الحاضرين: أنت والله فى العلم أكثر منك فى الرمى.

هكذا كانت حياة الإمام الشافعى- رحمه الله- فى مطلعها، حياة مثالية فى فضائلها، فقد حفظ القرآن، وأحب السنة النبوية المطهرة، وعود لسانه على النطق بالعربية الفصحى، وتدرب على الفروسية وإجادة الرماية، وتعرف على قسط كبير من أحوال أهل الحضر، وأهل البادية.

***

٣ - عصره :

نشأ الإمام الشافعى فى عصر ازدهرت فيه الثقافة، واتسعت فيه التراجم، ودونت العلوم، وتعددت العناصر داخل المجتمع الإسلامى، وكثرت الفرق وظهرت الاتجاهات الفكرية المختلفة وترامت أطراف الدولة العباسية وتفشت الفتن وسلط الخلفاء العباسيون أتباعهم لرصد تحركات أعدائهم، وأعدوا العدة للقضاء عليهم.

ولقد كان لكل ذلك أثره فى الفكر الإسلامى، وكان تأثيره فى العقول على قدر سلامتها، ونقاء فطرتها، وحبها للعمل النافع الذى يهدى إلى الرشد.

كما كان فى عصره من اضطربت عقولهم بين قديم الثقافات وجديدها، فصاروا فى فوضى فكرية لا استقرار فيها، ولقد وجد بجوار هؤلاء زنادقة كانوا يعلنون أفكاراً هدامة تشيع الرذائل وتنبذ الفضائل.

كما وجد العلماء الذين دافعوا عن دينهم بالأدلة النقلية المستقاة من كتاب الله- تعالى- ومن السنة النبوية المطهرة.

ووجد إلى جانبهم أولئك المفكرون الذى برعوا فى الأدلة العقلية، التى تهدم آراء الملحدين وأصحاب الأفكار الفاسدة.

لقد كان عصر الإمام الشافعى كما وصفه بعض العلماء بقوله: «إن شئت أن تسمى عصره عصر المناظرات الفقهية المثمرة فسمه، وإن شئت أن تسمه عصر مباراة العلماء، ومسابقة الأدباء ومنازلة الكتاب فسمه.

وإن شئت أن تسمه عصر الاستقرار النسبى للدولة العباسية، وتمكين سلطانها وازدهار الحياة الإسلامية فيها فسمه.

ولا شك أن ذلك كله، كان له أثره الكبير فى ثقافة الإمام الشافعى- رحمه الله- وفى سعة علمه، وفى حسن إدراكه لما هو حق ولما هو باطل، ولما هو صحيح ولما هو سقيم.

***

٤ - طلبه للعلم :

استقر الإمام الشافعى فى مكة المكرمة بعد أن قضى سنوات فى البادية وكان يجالس العلماء، وينصت لأحاديثهم، فإذا ما رجع إلى داره كتب ما يراه مناسبا مما سمعه ووعاه.

وكان ملازما للمسجد الحرام، وكان جميل الصوت فإذا ما قرأ القرآن التف الناس من حوله، لحسن ترتيله، حتى قال بعضهم : كنا إذا أردنا أن نبكى قال أحدنا لغيره : قوموا إلى هذا الفتى المطلبى الذى يقرأ القرآن، قراءة تخشع لها القلوب.

وكان يتردد على حلقات العلم بشغف وتدبر، ومن أبرزها حلقة «مسلم بن خالد الزنجى، وحلقة سفيان بن عيينه . . .»

وفرح به مشايخه الذين كان يتردد على حلقاتهم، وقدروا مواهبه ووصفوه بالفطانة وسلامة التفكير.

وأذن له شيخه «مسلم بن خالد الزنجى» بالإفتاء وهو لم يبلغ العشرين من العمر، وكان يقول له : أفت يا أبا عبدالله فقد آن لك أن تفتى»

وبلغ الحال بسفيان بن عيينه أنه كان إذا سأله سائل فى الحديث الشريف، التفت إلى الشافعى وقال للسائل : «سل هذا، فإنه أفضل فتيان أهل زمانه».

وكان في إمكان الإمام الشافعي أن يقف عند هذا الحد من العلم، إلا أن همته العالية وعزيمته الماضية، وعشقه للعلم، كل ذلك جعله عندما بلغه خبر الإمام مالك- رحمه الله- وما منحه الله- تعالى- من علم نافع، واطلع على كتاب «الموطأ» وحفظ منه ما حفظ عندما علم ذلك ما كان منه إلا أن عقد العزم على السفر إلى المدينة المنورة للقاء إمام دار الهجرة.

واستعان بوالى مكة المكرمة ليعطيه رسالة يوصى فيها الإمام مالك باستقباله، فأعطاه رسالة إلى والى المدينة لكى يتوسط له فى لقاء الإمام مالك.

وأخيرا وصل الإمام الشافعي وهو فى حدود العشرين من عمره إلى المدينة المنورة، والتقى بالإمام مالك وقال له: «أصلحك الله، إنى رجل مطلبى- أى: من بنى المطلب بن عبد مناف- ومن حالى ومن قصتى كذا وكذا، وأخذ يقص عليه جانبا من أحواله.

فلما سمع الإمام مالك- صاحب الفراسة العميقة- كلام الشافعي، نظر إليه وقال له: ما اسمك؟ قال: محمد

فقال له: يا محمد اتق الله، واجتنب المعاصى، فسيكون لك شأن من الشأن، وإن الله- تعالى- قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بالمعصية.

وظل الإمام الشافعي ملازما للإمام مالك زهاء عشر سنوات، يقرأ عليه الموطأ، ويراجعه في بعض المسائل، وينتفع بعلمه الغزير.

وكان الإمام مالك معجبا بعقل الشافعي، وبفهمه العميق للأحكام الشرعية وكان يقول عنه «ما أتاني قرشي أفهم من هذا الفتى».

وكان الشافعي- رحمه الله- يحترم الإمام مالك، ويضعه في أسمى درجات التوقير والمحبة ويقول: «مالك أستاذي عنه أخذت العلم، وإذا ذكر العلماء فمالك هو النجم الثاقب» وعندما لحق الإمام مالك بربه سنة ١٧٩هـ كان الشافعي في التاسعة والعشرين من عمره، وكان قد بلغ في العلم شأنا عظيما.

***

٥- محنته:

وخلال تلك الفترة من حياة الإمام الشافعي وكان قد جاوز الثلاثين من عمره، تعرض، لمحنة قاسية، ولكن الله- تعالى- نجاه منها، وذلك أنه خلال عمله واليا على إحدى بلاد اليمن، وشى به الواشون بأنه من العلويين الذين ضد

الدولة، فأرسل إليه هارون الرشيد، وأحضر الشافعي ومعه تسعة من الرجال اتهموا بهذه التهمة، فقتلوا جميعا، وجاء الدور على الإمام الشافعي، ودارت بينه وبين هارون الرشيد محاورة انتهت بالعفو عنه، لقوة حجته وسلامة منطقه ووضوح أدلته على براءته.

ويبدو أن هذه المحنة كانت سببا في تفرغه للعلم وتركه للوظائف، فقد لازم بعد هذه المحنة محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة، والذي وقف إلى جانبه في محنته، فأخذ الشافعي يدارسه في بغداد العلم، ويراجع كتبه، ويستمع إلى آرائه، وينقل عنه أفكاره، ويرى فيه الإمام الفقيه المحدث.

وقد قابل محمد بن الحسن هذا الأدب من الإمام الشافعي بأدب مثله، فكان يكرمه، ويفرح بمجالسته، ويقدم له عن سخاء ما هو في حاجة إليه...

***

٦- دروسه بالمسجد الحرام:

ثم توجه الإمام الشافعي بعد ذلك إلى مكة، وأخذ يلقي دروسه في المسجد الحرام، والتقى به أكابر العلماء في موسم الحج، واستمعوا إليه واستمع إليهم ورأوا فيه فقيها متميزا،

يجمع بين فقه أهل المدينة الذى يقوم فى مجموعه على الأثر، وبين فقه العراق الذى يقوم فى مجموعه على الرأى.

وكان فقهه نتاج عقل ألمعى ذكى أنضجه فهمه لكتاب الله- تعالى- ولسنة رسوله ﷺ.

وقد أقام- رحمه الله- فى مكة زهاء عشر سنوات، استوعب فيها ألوانا من العلم النافع ومن الفقه العميق، وتكونت لديه الثقافة الرفيعة من روافد متعددة، منها شيوخه وأساتذته ومنها مطالعاته وقراءاته، ومنها رحلاته إلى المدينة وإلى اليمن والكوفة وبغداد، ومنها مناظراته ومساجلاته ومجادلاته لغيره من المحدثين والفقهاء واللغويين والمتكلمين.

ولقد كان- رحمه الله- يؤمن بأن تعدد المصادر أمر ضرورى للحصول على العلم النافع، ويقول: «من تعلم القرآن عظمت قيمته ،ومن كتب الحديث وحفظه قويت حجته، ومن نظر فى الفقه نبل قدره، ومن نظر فى اللغة رق طبعه، ومن نظر فى الحساب جزل رأيه، ومن لم يصن عرضه لم ينفعه علمه».

وخلال هذه الفترة الطويلة التى قضاها بمكة، علا قدره واشتهر أمره، واتسع علمه، وتبحر فى دراسة ما يتعلق بالقرآن والسنة والاجتهاد وأصول الاستنباط والقواعد الكلية فى الفقة.

***

٧- سفره إلى بغداد :

وفى السنة الخامسة والتسعين بعد المائة، وكان الشافعى قد بلغ الخامسة والأربعين من عمره المبارك، عاد إلى بغداد، بعد أن سطع نجمه فى الفقه، فالتف من حوله المحدثون وأهل الرأى، وألف كتابه الذى سماه «الرسالة» الذى وضع فيه أسس علم «أصول الفقه» ويروى أن هذا الكتاب كان بوصية من الوالى الشهير عبدالرحمن بن مهدى الذى سر به سرورا عظيما بعد قراءته، ومدح الشافعى مدحا عظيما على تأليفه هذا الكتاب القيم.

***

٨- رحلته إلى مصر :

وعندما شعر الإمام الشافعى- وهو العربى القرشى الأصيل- أن العنصر غير العربى قد فشا واستعلى فى بغداد فى عهد الخليفة المأمون بن هارون الرشيد، الذى قرب إليه المعتزلة وأشباههم.

عندما شعر بذلك- سافر إلى مصر بدعوة من واليها العباس بن عبدالله- القرشى الهاشمى- وكان ذلك سنة ١٩٩هـ- وأقام-رحمه الله- بمصر زهاء خمس سنوات، صنف

خلالها كتبه، واشتهر أمره، وقصده الناس من الشام واليمن والعراق، ووضع مذهبه الجديد بمصر بسبب تغير الأوضاع والعادات والعرف، وضمنه كتابه الشهير «الأم».

وكانت دروسه كثيرة ومتنوعة، بحيث تشمل التفسير والحديث والفقه واللغة والشعر وكانت تمتد من مطلع الفجر إلى قرب انتصاف النهار، مما يدل على سعة علمه، وعلو همته، وقد تحدث فضيلة أستاذنا الشيخ محمد علي السايس- رحمه الله- في كتابه «نشأة الفقه الاجتهادي وأطواره» ص٦٣، عن أصول المذهب الشافعي فقال: «منهج الشافعي- رحمه الله- في الاجتهاد ماأثبته بنفسه في كتابه «الأم» ونصه: والعلم طبقات: الأولى الكتاب والسنة إذا ثبتت، ثم الثانية الإجماع فيما ليس فيه كتاب ولاسنة، والثالثة: أن يقول بعض الصحابة ولا يعلم له مخالفا، والرابعة: اختلاف الأصحاب في ذلك، والخامسة: القياس على بعض الطبقات..»

ثم يعلق فضيلة الشيخ السايس- رحمه الله- على ذلك فيقول: فالإمام الشافعي ينظر إلى السنة النبوية نظرته إلى القرآن، ويرى أن كلا منهما واجب الاتباع... وقد دافع في كتابه «الرسالة» دفاعا مجيدا عن العمل بخبر الواحد الصحيح، وقد أخذ بمرويات غير

الحجازيين، إذا لم يشترط فى الحديث سوى، الصحة أوالحسن، وهو لا يحتج بالحديث المرسل، إلا مرسل سعيد بن المسيب الذى وقع الاتفاق على صحته.. وهو ينكر الاستحسان الصادر عن الحكم بالهوى من غير دليل.. ولم يعمل بالقياس إلا إذا كانت علته منضبطة، ورد المصالح المرسلة واستغني عنها بما سماه المناسبة..

***

٩- اجتهاداته:

ولقد كان للإمام الشافعي- رحمه الله- اجتهاداته التى تدل على استقلال شخصيته، وعلى نفاذ بصيرته، وعلى عمق فهمه لشئون الدين والدنيا، وهاك طرفا من اجتهاداته التى خالف فيها جمهور الفقهاء:-

أ- يرى الإمام الشافعى أنه يجوز لمن يصلى فرضا أن يقتدى بمن يصلى نافلة، فلو دخل إنسان المسجد ولم يكن قد صلى الظهر- مثلا- ووجد إنسانا يصلى ركعتى السنة، جاز له أن يقتدى به وصلى خلفه بينما جمهور الفقهاء يرون أنه لا تصح صلاة من يصلى فرضا خلف من يصلى نافلة.

ب- وفى مسألة الرضاع يرى الإمام الشافعى أن الرضاع الذى يثبت به التحريم فى الزواج لا يكون بأقل من خمس

رضعات متفرقات، بينما يرى جمهور الفقهاء، أن الإرضاع الذى يثبت به التحريم هو مطلق الإرضاع وأن قليله وكثيره سواء فى التحريم ولكل أدلته المبسوطة فى كتب الفقه.

جـ- وفيما يتعلق بصيام شهر رمضان، يرى الإمام الشافعى أن لأهل كل بلد رؤيتهم ولا يلزمهم رؤية غيرهم ما داموا بعيدين عنهم ،ولا يتفقون معهم فى خط طول واحد، بينما يرى جمهور الفقهاء أنه متى ثبتت رؤية هلال رمضان فى أى بلد من بلاد المسلمين، وجب عليهم جميعا الصيام، ولا فرق فى ذلك بين القريب والبعيد منهم، متى بلغهم خبر رؤيته وكان يجمعهم جزء من الليل.

د- وفى موضوع النسخ يرى الإمام الشافعى أن القرآن لا ينسخ بالسنة، لأن السنة وظيفتها البيان وليس النسخ، وأن القرآن لا ينسخه إلا القرآن.. بينما يرى جمهور الفقهاء والمتكلمين أن نسخ القرآن بالسنة جائز، لأن كليهما وحى من الله- تعالى- من حيث المعنى، ولا فارق بينهما إلا أن ألفاظ القرآن من عند الله- عزوجل- بلفظها وبمعناها أما السنة النبوية الثابتة عن الرسول- ﷺ- فهى من عند الله بمعناها أما ألفاظها فهى بإلهام من الله- تعالى لنبيه محمد ﷺ الذى منحه خالقه جوامع الكلم.

هذه نماذج من اجتهادات الإمام الشافعي- رحمه الله- وهناك كثير في مسائل يتعذر حصرها.

***

١٠- وفاته:

لقي الإمام الشافعي ربه- عزوجل- بعد أن عمر حياته بجلائل الأعمال، وبأطيب الأقوال، وبأنفع وأجل ألوان العلم، وكان يعتقد أن القرآن الكريم، وأن السنة النبوية المطهرة، هما أساس شريعة الإسلام، وأن كل علم ليس منهما بركته قليلة، ونفعه ضئيل.

ولقد منحه الله- تعالى- بسطة في العلم والجسم، فكان طويل القامة، موفور الهيبة، ذا معرفة بالطب ومهارة في الرمي، مع حضور بديهة، وقوة إدراك وعمق الفكر، وسعة العقل وسخاء اليد وميل إلى البحث في الأمور الكلية، أكثر من الأمور الجزئية.

وكان- رحمه الله- فصيح اللسان- موفور البيان، بارعا في الخطابة، لقبه أهل الاختصاص بخطيب العلماء.

وكان نافذ البصيرة، صادق الفراسة، عالي المروءة، كريم الأخلاق، قال فيه العقلاء «لو كان الكذب مباحا لكانت مروءة الشافعي تمنعه من أن يكذب».

وقال هو عن نفسه: «لو علمت أن شرب الماء البارد ينقص من كرامتي ما شربته» وكان مخلصا فى تحصيله للعلم، وفى تعليمه لغيره، وفى نشره للناس دون أن يريد من أحد جزاء ولا شكورا.

وكثيرا ما كان يردد: «وددت لو انتفع الناس بهذا العلم ولم ينسب إليَّ منه شيء».

وكان- رحمه الله- عزيز النفس، عفيف اليد، صادعا بكلمة الحق، لا يخشى أحدا سوى خالقه ويتغنى بقوله:

أمطرى لؤلؤا جبال سرنديب
وفيضى آبار تكرور تبرا
أنا إن عشت لست أعدم قوتا
وإذا مت لست أعدم قبرا
همتى همة الملوك ونفسى
نفس حر ترى المذلة كفرا

وكان- رحمه الله- يعشق الأسفار، لا من أجل متعة من متع الدنيا، وإنما من أجل طلب العلم، ومن أجل سماعه من أهله، ومن أجل عرض ما عنده من علم عليهم، ومراجعتهم.

ومدارستهم ومحاورتهم فيما قالوه، وفيما أفتوا به، ومن أشعاره الحكيمة فى محبة الأسفار للقاء الأخيار قوله:

سافر تجد عوضا عمن تفارقه
وانصب فإن لذيذ العيش فى النصب
إنى رأيت وقوف الماء يفسده
إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب
والأسد لولا فراق الغاب ما افترست
والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والتبر كالترب ملقى فى أماكنه
والعود فى أرضه نوع من الحطب

ومما ينسب إليه- أيضا- قوله:

ساضرب فى طول البلاد وعرضها
أنال مرادى أو أموت غريبا
فإن تلفت نفسى فلله درها
وإن سلمت كان الرجوع قريبا

وكان- رحمه الله- ينفر من البلاد التى رؤساؤها، يفضلون العناصر الأعجمية على العناصر العربية ويقربون من مجالسهم أهل الكلام الفلسفى والجدلى، على من ينطقون بالعلم الشرعى ولعل هذا من الأسباب التى جعلته يرحل إلى مصر ويترك بغداد فى عهد الخليفة المأمون الذى قرب رؤساء فرقة المعتزلة،

واستعان فى تدعيم سلطانه بالعناصر الفارسية.

ولقد كان سفره إلى مصر بدعوة من واليها فى ذلك الوقت، العباس بن عبدالله- القرشى الهاشمى-.

ومن أشعاره عندما قصد السفر إلى مصر قوله:

لقد أصبحت نفسى تتوق إلى مصر

ومن دونها قطع المهامة والقفر

فو الله ما أدرى إلى الفوز والغنى

أساق إليها أم أساق إلى القبر

وكان- رحمه الله- محل الاحترام والتقدير، والمحبة من شيوخه ومن تلاميذه، ومن كل ذى عقل سليم ومنبت كريم.

فإمام دار الهجرة مالك بن أنس بمجرد أن رآه واستمع إليه أحبه وأكرمه وقربه من مجلسه وقال فيه: «ما رأيت قرشيا أفهم من هذا الفتى» وكان عمر الشافعى فى ذلك الوقت فى حدود عشرين سنة.

وعندما بلغ خبر موته للإمام أحمد بن حنبل- رحمه الله- قال: «كان الشافعى كالشمس للدنيا، وكان كالعافية للبدن، ما من أحد مس محبرة إلا وللشافعى عليه منة».

وقد تعرض الإمام الشافعى فى أواخر حياته لكثير من أذى

السفهاء، ومن تطاول الجهلاء، من حسد الحاسدين، فصبر على الأذى صبر العظماء.

دخل عليه أحد تلاميذه وقال له: كيف أصبحت يا شيخى، فقال له: أصبحت من الدنيا راحلا وللإخوان مفارقا، ولكأس المنية شاربا، ثم دمعت عيناه وناجى خالقه- عزوجل- بقوله:

فلما قسا قلبى وضاقت مذاهبى
جعلت رجائى نحو عفوك سلما
تعاظمنى ذنبى فلما قرنته
بعفوك ربى كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل
تجود وتعفو منة وتكرما

وصعدت روح الإمام الشافعي إلى بارئها، فى آخر ليلة من شهر رجب سنة ٢٠٤هـ، وقد بلغ من العمر أربعة وخمسين عاما.

رحم الله- تعالى- الإمام الشافعي وألحقنا به فى زمرة الصالحين.

***

الإمام أحمد بن حنبل.رحمه الله.

١ - تمهيد :

حديثنا اليوم عن رجل هو رابع الأئمة الذين لهم مذاهب وآراء وانتشرت فى مشارق الأرض ومغاربها أنه الإمام الجليل أحمد بن حنبل الذى وصفه معاصروه ومن جاء بعدهم من الأخيار بصفات جليلة وصفوه بأنه : إمام دارالسلام وعالم السنة، وزاهد عصره، وقدوة أهل العفاف، والصابر المحتسب..

ولقد صدر شيخ مشايخنا الإمام محمد أبوزهرة ـ رحمه الله ـ كتابه عن الإمام أحمد بقوله :قال أبو ثور: لو أن رجلا قال إن أحمد بن حنبل من أهل الجنة ما عنف على ذلك.

وذاك لأنه لو قصد بلاد خراسان ونواحيها : لقالوا : أحمد بن حنبل رجل صالح، وكذلك لو قصد العراق ونواحيها لقالوا : أحمد بن حنبل رجل صالح، فهذا إجماع..

وقال عنه الشيخ رشيد رضا ـ صاحب تفسير المنار ـ رحمه الله ـ إن الإمام أحمد بن حنبل مجدد القرن الثالث..

***

٢ – مولده ونسبه :

والإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ ولد فى شهر ربيع الأول من سنة أربع وستين بعد المائة ذكر بعض الكاتبين أن أباه سافر ومعه زوجته من مدينة «مرو» التى كان يقيم بها، إلى مدينة بغداد والإمام أحمد فى ذلك الوقت كان جنينا فى بطن أمه، فكانت ولادة الإمام أحمد فى بغداد، وهو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبدالله، بن حيان . . . بن مازن بن شيبان

ويلتقى الإمام أحمد فى نسبه مع النبى ـ ﷺ ـ فى نزار بن معد بن عدنان . ووالد الإمام أحمد كان من المجاهدين الغزاة، بل إن بعضهم قال: إن والده كان قائدا من قادة الجند، وما خلع زى الغزاة إلى أن فارق الحياة، وهو فى سن الثلاثين وترك ابنه أحمد وهو طفل صغير .

وقد تولت والدته تربيته، وكان أبوه قد ترك له عقارا يسكنه، وعقارا آخر يغل له الكفاف من العيش ووالدة أحمد كانت سيدة عاقلة حازمة اسمها «صفية» من قبيلة شيبان ـ أيضا .

وكانت قبيلة شيبان تسكن البصرة، وكان الإمام أحمد إذا زار مدينة البصرة صلى فى مسجد بنى شيبان وقال: هذا مسجد أجدادى .

وقد اشتهرت نسبة الإمام أحمد إلى جده حنبل، لأن هذا الجد كان فى عهد الدولة الأموية من ولاتها على بلده

«سرخس» التابعة لمدينة خراسان فكان جده حنبل أشهر من أبيه محمد ولذلك قيل أحمد بن حنبل.

والخلاصه أن الإمام أحمد عربى شيبانى الأب والأم والجد، وقبيلة شيبان كان منها الصحابى الجليل المثنى بن حارثة، الذى تولى قيادة الجيوش الإسلامية لفتح العراق فى عهد أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - ومن هذه الأسرة الكريمة، نشأ الإمام أحمد مفطورا على عزة النفس، وعلى قوة العزم، وعلى احتمال المكاره، وعلى الصبر الجميل، وعلى الإيمان العميق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وقد نشأ - رحمه الله - فى العصر العباسى الذى تغلب فيه العنصر الفارسى على العنصر العربى، والذى كثرت فيه المنازعات على ولاية العهد، وتنوعت فيه الطوائف والنحل، وكان أشهرها طائفة المعتزلة التى كانت لها الكلمة المسموعة عند عدد من الخلفاء العباسيين، من أشهرهم المأمون بن هارون الرشيد.

كما كثرت فى ذلك العصر المناظرات، والمساجلات، والتراجم، والمؤلفات، فى شتى ألوان العلوم والفنون.

كما اتسع فى ذلك العصر نطاق الفقه، ووضع فيه الإمام الشافعى علم أصول الفقه، وأخذت فيه علوم القرآن والحديث طريقها إلى الذيوع والانتشار.

***

٣ - نشأته العلمية :

نشأ الإمام أحمد فى أحضان أم فاضلة حازمة، غرست فيه منذ صغره مكارم الأخلاق، وعلو الهمة، وعزة النفس، وحب العلم.

نشأ فى تلك الأسرة الكريمة التى كانت فقيرة فى المال، إلا أنها كانت غنية بنسبها الرفيع،

والنشأة الفقيرة مع النسب الرفيع تجعل صاحبها - كما يقول الحكماء - ينشأ على خلق كريم، ومسلك قويم، ويسعى إلى المجد بعزيمة عالية، وبصبر جميل على تحمل أعباء الحياة وآلامها ومتاعبها، كما تجعل صاحبها يكون أكثر إحساسا بمن حوله ممن يشبهونه فى قلة المال، وأكثر اندماجا فى أوساطهم، وفى التعرف على أحوالهم وفى الشعور بشعورهم.

لقد مرت على الإمام أحمد بن حنبل فى مطلع حياته فترات عصيبة قاسية فيما يتعلق بضرورات الحياة المادية.

هذه الفترات اضطرته إلى القيام بتعلم حرفة تساعده على ما يغنيه عن السؤال..

فكان كما يقول المؤرخون عنه: إذا ضاق به الحال أجر نفسه تارة عند صانعى الثياب، وتارة عند الزراع لجمع محاصيلهم من الزراعة، وتارة يكتب الرسائل لمن لا يحسن الكتابة إلى غيره فى نظير أجر متواضع.

نشأ ـ رحمه الله ـ فى تلك الأسرة الفقيرة، ترعاه أمه بكل معانى الرعاية الكريمة، وكانت لها مكانتها السامية فى نفس ابنها الذى لمست فيه حبه لها واحترامه لمكانتها، وطاعته لأوامرها، ولمست فيه ـ أيضا ـ النجابة، والذكاء، والفصاحة والتحلى بمكارم الأخلاق، ولمست فيه عشقه للعلم، فشجعته على ذلك، كما شجعه ـ أيضا ـ على طلب العلم بعض أفراد أسرته.

نشأ الإمام أحمد فى بغداد، وفتح عينيه فى صباه على مدينة امتلأت بأناس اختلفت مشاربهم، وتنوعت مطالبهم، واجتمعت فيها ألوان من المعارف والفنون.

لقد كانت بغداد فى ذلك الوقت حاضرة من حواضر العالم الإسلامى، توافر فيها القراء والمحدثون، وعلماء اللغة والفلاسفة والحكماء والشعراء.

وقد اختارت له أمه وأسرته أن يكون من المتفقهين فى الدين، وفى حفظ القرآن الكريم، وفى دراسة السنة النبوية المطهرة، وفى معرفته مآثر الصحابة والتابعين.

وقد صادف هذا الاختيار سرورا فى نفسه، واستعدادا فى عقله، وقوة فى عزمه، وغاية تصبوا إليها همته العالية، وفطرته النقية، وعقيدته السوية.

فبدأ حياته فى حفظ القرآن الكريم،، وفى تعلم اللغة

العربية، واستطاع وهو دون الرابعة عشرة من عمره، أن يجيد القراءة والكتابة، وأن يدرب نفسه على تحرير الرسائل المتنوعة.

وكان وهو صبى محل ثقة الرجال والنساء، وبلغ فى استقامته وتقواه أن جند الدولة العباسية الذين كانوا مكلفين بحماية الثغور التى كانت بعيدة عن أماكن إقامتهم، كانوا يكتبون الرسائل إلى أزواجهم وأقاربهم. فكانت النساء يجدن فى الإمام أحمد الثقة التى تجعلهن يقرأ عليهن رسائل أزواجهن، ويكلفنه أن يكتب لهن الأجوبة على أزواجهن، متحريا فى كتابته الألفاظ التى لا تحمل سوى المعانى الكريمة.

وبلغ مع إعجاب الناس به فى صباه ،أن أحد الآباء قال: «أنا أنفق على أولادى، وأحضر لهم الذين يؤدبونهم ويعلمونهم، فما أراهم يفلحون.. وهذا أحمد بن حنبل غلام يتيم، انظروا كيف شأنه»، وجعل يتعجب من أدبه، ومن حسن طريقته فى الكتابة.

وهكذا اشتهر الإمام أحمد منذ صباه بالتقوى وبالاستقامة، وبإتقان عمله، وبالصبر والجد، وتحمل المكاره.

وقد قال فيه أحد الحكماء عندما رآه على تلك الحال من الذكاء والنجابة والتقوى: لئن عاش هذا الفتى فسيكون حجة أهل زمانه.

ولقد حقق الله ـ تعالى ـ لهذا الرجل فراسته، فقد عاش الإمام أحمد عمرا مباركا، بلغ فيه السابعة والسبعين، وكان فى حياته نعم العالم الذى انتفع الناس بعلمه، الزاهد الذى كان قدوة فى ورعه،

ونعم الصابر على البأساء والضراء والآلام التى لا يستطيع الصبر عليها إلا من رضى الله عنهم ورضوا عنه ،ولقد كانت أمه ـ وهى الحريصة على تفوقه فى طلب العلم، كان تشفق عليه من سهره وطلبه المستمر لإجادة القراءة والكتابة، وكانت ـ أحيانا ـ تراه يريد الخروج قبل الفجر لطلب العلم، فتأخذ بثيابه وتأمره بعدم الخروج حتى يصبح الصباح، ويبدأ الناس فى الخروج من منازلهم.

وبعد أن نضج علم الإمام أحمد فى النواحى اللغوية التى هى الطريق إلى العلوم الأخرى، اتجه فى تعليمه إلى علم الفقه فتتلمذ فى مطلع شبابه على قاضى القضاه فى عصره الإمام أبى يوسف المتوفى سنة ١٨٢ هـ والتلميذ الأكبر للإمام أبى حنيفة.

ثم اتجه بعد ذلك إلى دراسة السنة النبوية المطهرة، فأخذ فى جمع الأحاديث النبوية، ورحل فى سبيل ذلك ـ رغم قلة ماله ـ إلى بلاد متعددة، ليلتقى بعلمائها ليأخذ عنهم ما يستطيع جمعه وحفظه من الأحاديث النبوية الشريفة.

ومن البلاد التى سافر إليها لهذه المقاصد الشريفة التى تتمثل فى حفظه للأحاديث النبوية الشريفة، وجمعه لها: مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وبلاد الشام، واليمن، والكوفة، والبصرة.

وفى كل بلد وصل إليها كان مقصده الأكبر أن يلتقى بالعلماء المتخصصين فى رواية الأحاديث النبوية الشريفة، وفى حفظها، وفى تصنيفها، ، وفى سندها ومتنها.

وكان يكتب ما يسمعه منهم، بكل أمانة، وإتقان، واقتناع بما يكتبه، وكان - رحمه الله - يرتاح إلى الرحلة فى طلب معرفة الأحاديث النبوية الشريفة، وكأنه يقول: إن الشىء الذى يجىء بسهولة قد يكون قريب النسيان، ومن أجل ذلك فهو يحتسب السفر للقاء العلماء المتخصصين فى علوم الحديث النبوى الشريف هجرة فى سبيل الله - تعالى.

ولعل مما يشهد لذلك أنه خلال حجه ومعه صديقه يحيى ابن معين، أسر إليه بعد الانتهاء من مناسك الحج أنه سيسافر إلى صنعاء لكى يلتقى بالإمام عبدالرازق بن همام، أحد العلماء المتخصصين فى علوم الأحاديث النبوية الشريفه.

وشاء الله أن يحيى بن معين، خلال طوافه بالكعبة المشرفة، التقى بالإمام عبدالرزاق بن همام وكان يعرفه فسلم عليه، ونادى على الإمام أحمد وقال لعبدالرزاق: هذا أحمد بن حنبل أخوك فى العلم. فقال: حياه الله وثبته فإنه يبلغنى عنه كل جميل.

فقال له يحيى: نجىء إليك أنا وأحمد لنسمع منك إن شاء الله ونكتب.

فلما انصرف الإمام عبدالرزاق، قال الإمام أحمد لصاحبه الإمام يحيى به معين: لماذا أخذت على الشيخ موعدا؟

قال يحيى: لنسمع منه ونكتب عنه، فقد أراحك الله من مسيرة شهر إلى صنعاء باليمن، ومن رجوع شهر، سوى النفقة!!

فقال الإمام أحمد: إن الله ـ عز وجل ـ كان يرانى وقت أن نويت السفر إلى صنعاء للقاء عبدالرزاق بن همام، وإنى لا أريد أن أفسد نيتى بسبب ما تقول، إنى سأمضى فى السفر إليه بعد أداء مناسك الحج لأسمعه منه، ثم سافر بعد الحج إلى صنعاء، والتقى بعبد الرزاق بن همام، وسمع منه وكتب عنه.

وقد علق فضيلة شيخ مشايخنا الإمام محمد أبو زهرة ـ رحمه الله ـ على هذه القصة فقال: «انظر إلى النية المحتسبة للهجرة فى سبيل العلم، لقد لاحت له الفرصة التى تغنيه عن الهجرة، فلم ينتهزها، وآثر أن يضرب فى الأرض مهاجرا فى طلب العلم، ولم يرض أن يأخذ العلم رخاء سهلا، تسهله المصادفة، وتقربه الفرصة، خشية أن يتعود ذلك فلا يركب فى سبيله المركب الصعب، ويحتمل العيش الخشن.

وقد تحقق ما احتسب فسافر إلى صنعاء، وفى الطريق انقطعت به النفقة، فأكرى نفسه من بعض الحمالين، وأبى أن يقبل عونا من أحد.

وبعد أن وصل إلى صنعاء، حاول عبدالرزاق أن يعينه فقال له: يا أبا عبدالله خذ هذا الشىء فانتفع به، فإن أرضنا ليست بأرض متجر.. فقال له أحمد: أنا بخير وأبى أن يأخذ شيئا.

وهكذا طوف الإمام أحمد فى البلاد لرواية الحديث النبوى

الشريف من طرقه المختلفة، وكان - رحمه الله - يقول: «من لم يجمع علم الأحاديث وكثرة طرقها، واختلافها، لا يحل له الحكم على الحديث، ولا الإفتاء به».

***

٤ - شيوخه:

تلقى الإمام أحمد - رحمه الله - علمه عن كثير من شيوخه الذين تنوعت تخصصاتهم، وتعددت أماكنهم واختلفت آثار توجيهاتهم في عقله وفي نزوعه النفسي، وفي اتجاهه العلمي.

ولعل أول من تلقى العلم عنه في مطلع شبابه: أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم المتوفى ببغداد سنة ١٨٢هـ، والذى تولى القضاء للخلفاء: المهدى والهادى والرشيد، والذى كتب كتبا كثيرة في الفقه، من أشهرها كتاب «الخراج».

وكان أبو يوسف من أكبر تلاميذ الإمام أبى حنيفة، الذين دونوا مذهبه ونشروا علمه.

إلا أن تأثر الإمام أحمد بالإمام أبى يوسف - رحمهما الله - كان تأثرا محدودا، أما تأثر الإمام أحمد الأكبر فقد كان من شيخه هشيم بن أبى بشير بن أبى خازم الواسطى الذى ولد سنة ١٠٤هـ وتوفى سنة ١٨٣هـ.

لأن «هشيما» هذا قد لازمه الإمام أحمد وهو فى مطلع شبابه أكثر من أربع سنوات، وتلقى عنه الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة، التى أوصلها بعضهم إلى ثلاثة آلاف حديث.

وكان «هشيم» - رحمه الله - إمام المحدثين ببغداد، وكان ورعا تقيا ذا حافظة واعية، وهو من تابعى التابعين، وقد كانت حلقته فى علم الحديث هى الحلقة الرئيسية فى بغداد.

وكانت له هيبته فى نفس الإمام أحمد، لدرجة أنه كان يستحى أن يسأله إجلالا له، واحتراما لعلمه، الذى فرغ نفسه له، وتحمل المشاق فى سبيل تحصيله، ورحل إلى بلاد متعددة من أجل سماع حديث رسول الله - ﷺ.

فقد رحل إلى مكة، وإلى البصرة، وإلى الكوفة، طلبا للحديث النبوى، وللاستماع من علمائه ورواته وبلغ من تأثر الإمام أحمد به، أنه كان يحفظ ما يسمعه منه، وكان يقول: «حفظت كل شىء من هشيم، وهشيم حى قبل موته، وهذا القول منه ليدل على شدة ثقته «بهشيم» - رحمهما الله.

كذلك من شيوخ الإمام أحمد الذين أحبهم وتأثر بهم: الإمام محمد بن إدريس الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤هـ.

لقد التقى الإمام أحمد بالإمام الشافعى، خلال أدائه

لفريضة الحج، واستمع إليه وهو يلقى دروسه بالمسجد الحرام، فأعجبه عقله الفقهى، وفكره الثاقب فى استخراج الأحكام، وفى براعة الاستنباط.

والإمام أحمد ـ هو الذى قال فى شأن الإمام الشافعى ـ رحمهما الله ـ: روى عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «إن الله ـ عز وجل ـ يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة رجلا يقيم لها أمر دينها، فكان عمر بن عبدالعزيز على رأس المائة، وأرجو أن يكون الشافعى على رأس المائة.

كما سمع الإمام أحمد من كبار المحدثين ومنهم: عمير بن عبدالله بن خالد، وعبدالرحمن بن مهدى وأبى بكر بن عياش، ويحيى القطان وغيرهم.

وكان ـ رحمه الله ـ يحب أن يسمع من الإمام مالك بن أنس ـ إمام دار الهجرة ـ إلا أن الإمام مالكا ـ رحمه الله ـ لحق بربه، وكان الإمام أحمد فى الرابعة عشرة من عمره، فلم يتمكن من لقائه.

وكان يقول: فاتنى السماع من مالك، فأخلف الله على سفيان بن عيينة.

وسفيان بن عيينة ـ رحمه الله ـ كان من المحدثين الأثبات.

وقد ذكر شيخنا الشيخ محمد أبو زهرة فى كتابه عن الإمام أحمد بن حنبل أن ابن الجوزى أحصى شيوخ الإمام

أحمد، فتجاوز عددهم المائة.

ولاشك أن ذلك مرجعه إلى كثرة رحلات الإمام أحمد إلى البلاد المختلفة لطلب العلم، والاستماع إلى ما عندهم من أحاديث نبوية، وتسجيل ذلك فى أوراقه، فضلا عن ذاكرته الواعية التى منحه الله أياها.

ولقد قال له أحد أصدقائه متعجبا من كثرة رحلاته: إلى متى تنتهى هذه الرحلات، وأنت قد بلغت ما بلغت من العلم؟ فأجابه الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ بقوله: «مع المحبرة إلى المقبرة».

وهى جملة حكيمة تدل على أن صاحبها ـ رحمه الله ـ كان من عشاق العلم ولاسيما ما يتعلق بعلم الحديث النبوى الشريف.

وفى هذه الجملة الجليلة، إشارة إلى هدى الإسلام، الذى يمجد طلب العلم من المهد إلى اللحد، وأن طالب العلم منهوم لا يشبع.

وكان ـ رحمه الله ـ يقول: «أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر» والعقلاء من الناس هم الذين ينتفعون بهذه الحكمة التى قالها الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ ألا وهى قوله «مع المحبرة إلى المقبرة».

***

٥ ـ جلوسه للتدريس :

مع أن الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ منذ صباه فتح عقله وقلبه لعشق العلم، وحصل ما حصل منه، وتلقى عن شيوخه ما تلقى من معلومات، وطوف فى الأقاليم الإسلامية ليسمع ويكتب ما سمعه من أفواه العلماء، وما سمع بعالم إلا ورحل إليه، مهما تجشم فى ذلك من متاعب.

مع كل ذلك فإنه لم يجلس للتدريس فى المسجد الجامع ببغداد إلا وهو فى سن الأربعين.

ولعله ـ رحمه الله ـ قد فعل ذلك اقتداء بالرسول ﷺ ـ لأن الله ـ عز وجل ـ قد أوحى إليه بالرسالة وهو فى تلك السن.

والإمام أحمد كان فى كل أحواله على رأس المتأسين بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كل شىء

وبعضهم يعلل امتناعه عن الجلوس للتدريس لأنه كان يستحى أن يفعل ذلك، وهناك من شيوخه من لايزال على قيد الحياة.

وذكر عنه بعض معاصريه أنه سأله أن يملى عليه حديثاً سمعه من الإمام عبدالرزاق بن همام، فأبى أن يجيبه على ذلك، لأن عبدالرزاق كان مازال على قيد الحياة.

وكان ـ رحمه الله ـ يعقد درسه فى المسجد الجامع ببغداد بعد صلاة الفجر، ونظرا لما كان يعرف عنه من زهد، وورع، وتقوى، وعلم فياض، وتواضع جم.. فإن درسه كان يشهده

الآلاف من مختلف الطبقات والتخصصات والاتجاهات.

وكان منهم من يطلب العلم، ومنهم من يطلب الحكمة، ومنهم من يطلب الموعظة الحسنة، ومنهم من كان يكتب ما يسمعه من أحاديث شريفة، ومن أحكام فقهية جليلة.

وإلى جانب هذا الدرس العام الذى كان يعقده الإمام أحمد فى المسجد الجامع ببغداد بعد صلاة العصر، كان له درس خاص يعقده فى منزله، يجيب فيه عن أسئلة تلاميذه ومريديه.

ومن مميزات دروسه: أنه كان يظلها الوقار والسكينة والجد، لأن ذلك هو الذى يتفق مع الاستماع إلى رواية السنة النبوية الشريفة، وإلى الأحكام الشرعية التى هى من أركان الدين وأصوله.

وكان يرى - رحمه الله - أن مجالس العلم عبادة، ولا مزاح فى وقت العبادة.

كذلك كان من مميزات دروسه: التثبت من صحة الإجابة عما يسأل عنه، ومن مظاهر ذلك أنه إذا كان السؤال عن حديث نبوى، لا يقول الجواب عنه إلا من كتاب يحضره معه، حرصا على التأكد من صحة النقل، وابتعادا عن مظنة الخطأ فى الجواب.

وهذا كان اتجاهه فى معظم الأحوال، ولم يؤثر عنه ما يخالف ذلك إلا فى القليل النادر.

ولقد قال عنه ابنه عبدالله، مارأيت أبى حدث من حفظه من غير كتاب إلا فى أقل من مائة حديث.

وكان - رحمه الله - ينهى تلاميذه عن أن يحدثوا من غير كتاب خشية النسيان أو الخطأ، ويروى أن على بن المدينى كان لايحدث إلا من كتاب، وكان يقول: «إن شيخى أحمد بن حنبل أمرنى ألا أحدث إلا من كتاب.

كذلك من مميزات دروس الإمام أحمد بن حنبل: أنها كانت دروسا خالصة للحديث النبوى الشريف وللأحكام الفقهية التى تقوم على ما ورد عن السلف، واختار أن يعيش مع هدى الصحابة والصفوة من التابعين، ومن جاء بعدهم ممن نهج نهجهم، وسار على طريقهم ومن أسباب ذلك أنه عاش فى عصر تغلب فيه العنصر الفارسى على العنصر العربى، وظهرت فى كثير من الأقاليم الإسلامية فرق شتى، وآراء متعددة، واتجاهات بعيدة عن أحكام شريعة الإسلام، وفلسفات منحرفة عن الحق، وعقائد زائفة..

وبعض خلفاء الدولة العباسية كالخليفة المأمون بن هارون الرشيد، قويت فى عهده العناصر الفارسية التى أيدت هذا الخليفة.

وفى هذه العهود المضطربة اختار الإمام أحمد أن يعيش حياة السلف الصالح، وأن يحلق فى آفاقهم، فكان علمه وفقهه هو علم السنة النبوية المطهرة، وفقهها النقى من تلك الأفكار الفاسدة.

وكان للإمام أحمد تلاميذ كثيرون، سمعوا منه، ورووا عنه، وساروا على نهجه، وأحبوه لزهده وعلمه وتواضعه وتقواه.

ومن هؤلاء، يحيى بن آدم، وعبدالرحمن بن مهدى، وعلى ابن المدينى، وأبو حاتم الرازى، وموسى بن هارون، وحنبل بن إسحاق، وغيرهم.

وقد اجتهد فى نقل الفقه الحنبلى عدد كبير من تلاميذه منهم:

ابنه صالح، وهو أكبر أولاده، وتوفى سنة٢٦٦هـ.

ومنهم، ابنه عبدالله، وكان من علماء الحديث، وتوفى سنة ٢٩٠ هـ.

ومنهم، أحمد بن محمد الأثرم، المتوفى سنة ٢٧٣ هـ، وهو الذى قال عن نفسه: كنت أحفظ الفقه والاختلاف، فلما صحبت أحمد بن حنبل تركت كل ذلك.

ومنهم أحمد بن محمد الخلال، الذى جمع فقه ابن حنبل ونشره، وتوفى سنة ٣١٠هـ وكانوا جميعا مثالا للوفاء لشيخهم، وللسير على منهاجه وفكره.

***

٦ـ كتبه:

المتتبع لحياة الإمام أحمد بن حنبل يراه قد بدأ مبكرا فى دراسة السنة النبوية وجمعها وحفظها، وبذل فى سبيل ذلك

ما بذل من أسفار متعددة، ومن لقاءات متنوعة مع شيوخه الذين كان يتوسم فيهم الحرص على جمع السنة النبوية وحفظها، وكتاب «المسند» هو مجموعة من الأحاديث التى رواها الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ وقد بدأ فى جمع هذه الأحاديث وهو فى السادسة عشرة من عمره. وقد قال عنه، عملت هذا الكتاب إماما، إذا اختلف الناس فى سنة عن رسول الله ﷺ رجعوا إليه.

وقد أجهد أحمد نفسه فى جمع الحديث عن الرواة الثقاة، وأنفق فى ذلك معظم حياته، وكان يكتبه أولا فى أوراق منفردة، ثم جمعه وأملاه على من كتبوه من أهله.

وتوفى ـ رحمه الله ـ قبل أن يكمله ترتيبا، وقد اشتمل هذا المسند على أربعين ألف حديث.

وقد كان ابنه عبدالله من المحبين منذ صغره لحفظ الأحاديث النبوية الشريفة وجمعها، فكان يسمع من أبيه ومن غيره، إلا أن أكثر ما سمعه ووعاه كان من أبيه.

ولقد كان الإمام أحمد يفرح، لشغف ابنه عبدالله بسماع الحديث وبحفظه وبكتابته، وكان يقول عنه ابنى عبدالله محظوظ من علم الحديث، ولا يكاد يذاكرنى إلا بما لا أحفظ.

ولقد بلغ من منزلة عبدالله من أبيه، أن أباه كان يروى

عنه، وقد أكد كثير من العلماء، أن عبدالله كان أكثر الناس رواية عن أبيه، وساهم مساهمة كبيرة فى رواية المسند. وفى نشر علمه بين الناس بعد وفاة أبيه، ثم تتابعت الأجيال فى قراءة المسند وفى حفظ أحاديثه وتلقاه العلماء بالقبول، وبالمراجعة والتحقيق والتعليق.

وللإمام أحمد ـ رحمه الله ـ كتب أخرى منها كتاب «الزهد» وهو كتاب تحدث فيه عن زهد الأنبياء، والصحابة، وأولياء الله الصالحين، واشتمل هذا الكتاب على كثير من الأحاديث، والآثار، والأخبار، والمواعظ والحكم.

وله ـ أيضا ـ كتاب الصلاة وهو كتاب تحدث فيه عن فضائل الصلاة وآدابها.

وذكر له بعض العلماء كتبا أخرى هى، المناسك الكبير والصغير، والناسخ والمنسوخ، وفضائل الصحابة، وغيرها.

وللإمام أحمد إلى جانب ذلك رسائل كتبها فى أمور معينة، منها: الرسالة التى كتبها فى القرآن، وقد كتبها بناء على وصية من الخليفة المتوكل الذى أراد أن يعرف رأى الإمام أحمد فى القرآن، بعد زوال المحنة التى تعرض لها الإمام أحمد فى هذه المسألة.

وقد جاء فيها: أسأل الله أن يديم توفيق أمير المؤمنين، فقد كان الناس فى خوض من الباطل، حتى أفضت الخلافة إلى أمير

المؤمنين، فنفى الله بأمير المؤمنين كل بدعة، وانجلى عن الناس ما كانوا فيه من الذل وضيق المحابس، فصرف الله ذلك كله، ووقع ذلك من المسلمين موقعا عظيما، وأدعو الله - تعالى - لأمير المؤمنين أن يزيد فى نيته، وأن يعينه على ما هو عليه.

ثم ساق - رحمه الله - جملة من النصوص التى تنهى عن الخلاف والنزاع فى تفسير القرآن، ومن ذلك قوله، عن عبدالله بن عباس - رضى الله عنهما - قال، لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فإن ذلك يوقع الشك فى قلوبكم.

وذكر عبدالله بن عمر - رضى الله عنهما - أن نفرا كانوا جلوسا بباب النبى ﷺ فقال بعضهم، ألم يقل الله كذا؟ وقال آخرون، ألم يقل الله كذا؟ فسمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قولهم، فخرج كأنه فقئ فى وجهه حب الرمان فقال، أفبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، إنما ضلت الأمم قبلكم فى مثل هذا ثم قال، انظروا الذى أمرتم به فاعملوا به، وانظروا الذى نهيتم عنه فانتهوا عنه.

وقال فروة بن نوفل الأشجعى: كنت جارا لخباب بن الأرت - رضى الله عنه - فخرجت معه يوما من المسجد وهو آخذ بيدى فقال لى، يا هذا تقرب إلى الله بما استطعت، فإنك لن تتقرب إلى الله بشئ أحب إليه من كلامه.

وقال معاوية بن قرة ـ رحمه الله ـ: إياكم والخصومات فإنها تحبط الأعمال. ولا تجالسوا أهل الأهواء فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، ويلبسوا عليكم بعض ما تعرفون.

ومن رسائله ـ أيضا ـ رسالته في الرد على الجهمية، وقد جاء فيها، «الحمد لله الذي جعل في كل زمان بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، وينهونه عن الردى. ينفون عن دين الله ـ عز وجل ـ تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الضالين الذين عقدوا ألوية البدع، وأطلقوا عنان الفتنة.

وأوصيكم ونفسي بتقوى الله، ولزوم سنة رسوله، فقد علمتم ما حل بمن خالفها، وما جاء فيمن اتبعها. وآمركم ألا تؤثروا على القرآن شيئا. فإنه كلام الله ـ عز وجل ـ وما تكلم الله به فليس بمخلوق، وما أخبر به عن القرون الماضية فغير مخلوق. ثم من بعد كتاب الله ـ تعالى ـ سنة نبيه محمد ﷺ والحديث عنه وعن المهديين من أصحابه.

واحذروا رأى «جهم بن صفوان» فإنه صاحب كلام وخصومات ومن أتباعه الذين يقولون: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة.

واعلموا أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، زيادته إذا أحسنت ونقصانه إذا أسأت.

ثم ختم - رحمه الله - هذه الرسالة بمهاجمة الفرق المبتدعة، وبالدعوة إلى العمل بالقرآن وبسنة الرسول - ﷺ -»

وللإمام أحمد - رحمه الله - بعد كل ذلك كلمات حكيمة منها قوله: الناس يحتاجون إلى العلم مثل الخبز والماء.

وقوله: لا تكتبوا العلم عمن يأخذ عليه عرضا من الدنيا.

وقـــوله: إذا رأيتم من يحب الكلام - أى الكلام البـــاطل - فاحذروه.

وقوله: إياك أن تتكلم فى مسألة ليس لك فيها إمام.

وقوله: إذا رأيتم رجلا يتهم أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ بسوء فهو بعيد عن الإسلام.

وقوله: الفائز من فاز غدا، ولم يكن لأحد عنده تبعة.

هذه لمحة عن كتب الإمام أحمد - رحمه الله - وعن وصاياه ورسائله، وعن كلماته الحكيمة.

***

٧ - صفاته ومناقبه:

يحدثنا التاريخ أن الإمام أحمد بن حنبل أعطاه الله بسطة فى العلم والجسم، فقد كان طويلا فى جسده، أسمر اللون فى بدنه، وكان فى حياته قليل الطعام يكتفى بما يسد حاجته

ويعمل بقول الرسول - ﷺ - «حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه» وكان يحب أن يحمل حاجته بنفسه حتى ولو كانت حزمة من الحطب، وكان يجلس على فراش قديم مرت عليه السنون حتى أصابه التلف.

وكان مع قلة أمواله، وشدة حاجته إلى ضرورات الحياة يتعفف عن أن يأخذ شيئا من غيره.

وعندما تقدمت به السن كان الخليفة «المتوكل» يرسل إليه المال الوفير، فكان يوزعه على غيره، ولايقبل على نفسه منه شيئا، وعاش حياته كلها زاهدا فى متاع الحياة الدنيا حريصا على التقيد التام بما هو حلال خالص، وبما هو بعيد عن أية شبهة، ملتزما بقول الرسول - ﷺ - الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه.

وكان ممن رزقهم الله - تعالى - ذاكرة واعية، وسعيا متواصلا فى طلب العلم، وكثرة فى الرحلات للقاء العلماء الذين يبلغه عنهم أنهم من حفظة ورواة حديث رسول الله - ﷺ - وكان لايتخلف عن ذلك مهما اشتدت الصعاب وطال المسير.

وكان فاهما لما يحفظه متحليا بالصبر الجميل والعزم الوطيد والإرادة القوية والثبات على المبدأ والتنزه عن الرياء

والجد فى قوله وعمله والنفور من المزاح حتى كان الناس لايجرءون على المزاح فى مجلسه.

وكان من طبعه أنه لايفتى إلا إذا سئل ولايفتى إلا فى الأمور الواقعية التى تزخر بها الحياة وكان يكره الحديث فى المسائل الفرضية التى لا أثر لها فى مطالب الناس ولايفتى برأيه إلا فى أضيق الحدود ويحب أن تكون فتاواه مستمدة من هدى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وكان من أخلاقه العفو عن الناس والتجاوز عن هفواتهم ويتأسى برسول الله ﷺ الذى كان لايغضب لنفسه فإذا ما انتهكت حرمات الله لم يقم لغضبه شىء.

لقد أساء إليه رجل سفيه وقال له كلاما قبيحا ثم انصرف هذا السفيه وبعد أن أدرك سوء تصرفه رجع إلى الإمام أحمد معتذرا عما بدر منه وقال له: يا أبا عبدالله، إن الذى كان منى كان من غير تعمد، فأنا أحب أن تعفو عنى.

فقال له الإمام أحمد: مازالت قدماى من مكانهما حتى جعلتك فى حل مما نطقت به.

وكان من أخلاقه ومناقبه - رضى الله عنه - التواضع فى معاملته للفقراء والمساكين والضعفاء.

وفى الوقت نفسه العزة كل العزة فى معاملته مع الكبراء والزعماء وأصحاب المناصب فى الدولة.

وصفه أحد تلاميذه فقال : لم أر الفقير أعز منه فى مجلس أبى عبدالله أحمد بن حنبل ، كان مائلا إلى أهل الفقر مبتعدا عن أهل الدنيا ، وكان فيه حلم ، ولم يكن بالعجول ، وكان كثير التواضع ، تعلوه السكينة والوقار ، إذا جلس فى مجلسه بعد العصر للفتيا لا يتكلم حتى يسأل ، وإذا خرج إلى مجلسه لايتصدر وإنما يجلس حيث ينتهى به المجلس .

كان عفيفا زاهدا نزيها يتعفف عن الشبهات فضلا عن الحرام ،سأله سائل ، بم تلين القلوب ؟

فأجابه : بأكل الحلال وبالبعد عن الحرام .

ولما عرض السائل هذه الإجابة على شيخ كبير قال له الشيخ : لقد أجاب أحمد بالأصل . لقد أجاب بالجوهر .

كان كثير التهجد والتعبد والتقرب إلى الله بشتى الأقوال الطيبة والأعمال الصالحة والسلوك الحميد .

قال عنه ابنه عبدالله : إن أبى أحمد كان حتى فى أواخر حياته لايترك التهجد وقيام الليل وكان يختم قراءة القرآن كل سبعة أيام .

ولقد شهد له شيوخه وتلاميذه وكبار علماء عصره بشهادات تدل على احترامهم له وثقتهم بعلمه وبعمق إيمانه وبتحريه لكلمة الحق فى كل أحواله .

يقول أبو داود السجستانى : لقيت مائتين من مشايخ العلم فمارأيت مثل أحمد بن حنبل ، لم يكن يخوض فى

شىء مما يخوض فيه الناس من أمر متاع الحياة الدنيا، فإذا ذكر العلم تكلم.

ويقول أبو ثور: لو أن رجلا قال إن أحمد بن حنبل من أهل الجنة ماعنف فى ذلك.

ويقول الإمام النووى - صاحب رياض الصالحين: أحمد بن حنبل هو الإمام البارع، المجمع على جلالته وإمامته وورعه وزهادته وحفظه ووفور علمه وسيادته.

هذه بعض مناقب الإمام أحمد بن حنبل، وهذه لمحة من صفاته السامية، وأخلاقه العالية نسأل الله أن يجعلنا معه ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه.

***

٨ ـ محنته:

وقد تعرض الإمام أحمد وهو فى الرابعة والخمسين من عمره لمحنة قاسية، هى فتنة القول بخلق القرآن، وهذا القول تولت نشره فرقة المعتزلة التى كان الخليفة «المأمون» يؤمن بآرائها، ويعتنق مذهبها، ويقرب أتباعها ويجعل لهم النفوذ والصولة فى دولته.

وقد رفض الإمام أحمد بثبات وصبر هذا الاتجاه وتحمل فى سبيل ذلك كثيرا من الأذى والاضطهاد، خلال حكم المأمون، وحكم أخيه المعتصم من بعده.

ولقد استدعى «المعتصم» الإمام أحمد من سجنه، وجادله وأغراه وتوعده، ولكن الإمام أحمد أصر على موقفه، حيث كان المعتصم يسأله، ما تقول فى القرآن؟ فيجيب هو كلام الله. فيقال له، أمخلوق هو؟ فيجيب هو كلام الله. ولايزيد على ذلك.

ثم تولى «الواثق» بعد المعتصم فسار على طريقة سلفه واستمر الإمام أحمد صابرا على الأذى إلى أن تولى المتوكل الخلافة فحاول إنهاء هذه المحنة وإزالة آثارها.

وقد استمرت هذه المحنة زهاء أربعة عشر عاما تحمل الإمام أحمد خلالها ما تحمل من أذى واضطهاد داخل السجن وخارجه إلا أنه - رحمه الله - خرج منها بعد ثباته وصبره معززا مكرما من كل ذى عقل سليم ودين قويم وعاد إلى دروسه التى كان يؤمها الآلاف من الناس.

***

٩ـ فقهه:

والإمام أحمد - رحمه الله - وإن كان قد قضى معظم حياته فى خدمة الحديث النبوى الشريف وجمعه وحفظه إلا أنه كان إلى جانب ذلك من الفقهاء الراسخين فى فقههم.

وقد تحدث فضيلة المرحوم الشيخ محمد على السايس فى كتابه «نشأة الفقه الاجتهادى وأطواره» عن الأصول التى بنى عليها الإمام أحمد مذهبه فقال: مسلك الإمام أحمد فى

الاجتهاد قريب من مسلك الإمام الشافعى لأنه تفقه عليه وعنه أخذ.

قال الإمام ابن القيم فى إعلام الموقعين: فتاوى أحمد مبنية على أصول:

● أحدها: النصوص: القرآن والحديث المرفوع، فإذا وجده أفتى بموجبه، ولم يلتفت إلى ماخالفه، ولا إلى من خالفه كائنا من كان، ولم يكن ليقدم على الحديث الصحيح عملا ولا رأيا ولا قياسا ولا قول صحابى.

● الثانى: فتاوى الصحابة، فإذا وجد لأحدهم فتوى لايعرف منهم مخالفا فيها، لم يتركها إلى غيرها.

● الثالث، إذا اختلف الصحابة تخير من أقوالهم أقربها الى الكتاب والسنة، ولم يخرج عن أقوالهم.

● الرابع، الأخذ بالحديث المرسل وبالحديث الضعيف، إذا لم يكن فى الباب شىء يدفعه. وليس المراد بالضعيف عنده الباطل ولا المنكر. بل هو عنده قسيم الصحيح وقسم من أقسام الحديث الحسن ولم يكن يقسم الحديث إلى صحيح وحسن وضعيف، بل كان يقسمه إلى صحيح وضعيف، والضعيف عنده مراتب فإذا لم يجد فى الباب أثرا يدفعه، ولا قول صحابى، ولا إجماعا على خلافه كان العمل به عنده أولى من القياس.

● الخامس: القياس، وهو عنده مستعمل للضرورة، بحيث إذا لم يجد حديثا، ولا قول صحابى، ولا مرسلا، ولا ضعيفا، قال به، ويتوقف إذا تعارضت الأدلة، وكان شديد الكره والمنع للفتوى فى مسألة ليس فيها أثر عن السلف.

هذا وللإمام أحمد - رحمه الله - فى فقهه بعض التعبيرات الخاصة، فهو مثلا يقول عن الشىء لايعجبنى أو أكرهه وهو يريد تحريمه والامتناع عن فعله.

***

١٠ - من مميزات فقهه:

والمتأمل فى فقه الإمام أحمد وفى اجتهاده يلمس أمرين واضحين:

● أولهما: التشدد فيما يتعلق بأمر الطهارة والنجاسات، فهو - مثلا - يرى أن نجاسة الكلب يجب أن تغسل ثمانى مرات إحداهن بالتراب ويرى غسل بعض النجاسات الأخرى سبع مرات، ويرى أن غسل اليدين عند القيام من النوم واجب مع أنه مستحب أو سنة فى المذاهب الأخرى، ويرى أن المضمضة والاستنشاق فى الوضوء من الواجبات، بينما هما من السنن فى المذاهب الأخرى، ويرى وجوب الوضوء من أكل لحم الإبل، مخالفا بذلك جمهور الفقهاء.

● أما الأمر الثانى: فهو التوسعة والتيسير فيما يتعلق

بالمعاملات والعقود والشروط التى يلتزم بها المتعاقدان ولكن فى حدود ما أحله الله، فهو - رحمه الله - قد أقر من الشروط مالم يقره غيره من الفقهاء، وسار فى ذلك على منهاج أساسه احترام كل ما يشترطه العاقدان، مادام اشتراطه لايحرم حلالا، ولايحلل حراما، ولايتنافى مع طبيعة العقد، وهناك بعض الأمثلة من اجتهاداته:

أجاز - رحمه الله - للمرأة أن تشترط على زوجها أن لا تسافر معه، وأن لا تنتقل من دارها، كما أجاز لها أن تشترط عليه أن لا يتزوج عليها، وإذا اشترطت أن يكون للزوج مال، فظهر أنه لا مال له يكون لها أن تطالب بفسخ العقد، والعكس صحيح، بمعنى أن من حق الزوج - أيضا - أن يشترط على زوجته شروطا لاتحل حراما ولاتحرم حلالا، ولا تتنافى مع طبيعة العقد، فإذا أخلت بها فمن حقه أن يفسخ العقد، وأن يستعمل حقه فى تنفيذ ما قبلته من شروط.

وجمهور الفقهاء يخالف الإمام أحمد فى كثير من تلك الشروط المقترنة بالعقود. وإلى جانب ذلك نراه له اجتهادات قيمة تتعلق بالزكاة وبالتكافل الاجتماعى، ومن ذلك أنه يرى أنه إذا وقف الواقف أرضا على الفقراء والمساكين، لم يجب فى المحصول الخارج منها العشر، أى: لاتؤخذ منها الزكاة،

ولكن إذا وقف الواقف هذه الأرض على غـيـر الفـقـراء والمساكين، فإن العشر يؤخذ منها.

ويرى أن القرابة كلها توجب النفقة، فكل من يرث الفقير العاجز عن الكسب، تجب عليه نفقته فى حال عجز هذا الفقير، والميراث يشمل القرابة الدانية والبعيدة، فيشمل العصبات والأصول والفروع وأصحاب الفروض وذوى الأرحام.

وهو ـ رحمه الله ـ فى هاتين المسألتين اللتين تنشران روح التكافل الاجتماعى يخالف جمهور الفقهاء.

***

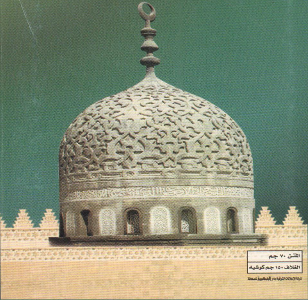
١١ ـ وفاته:

مرض الإمام أحمد مرض الموت، فكان مع شدة مرضه لايشغله شاغل عن الصلاة، ولم يتركها بحال من الأحوال وحين عجز عن تخليل أصابعه أمر أولاده بتخليلها، وقد لحق بربه بعد وقت قليل من وضوئه، سنة إحدى وأربعين ومائتين، وعمره سبع وسبعون سنة، عمرها فى طاعة الله تعالى وفى طلب العلم ونشره وتعليمه لغيره، وكانت وفاته صباح الجمعة، فى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول، وكانت جنازته بعد صلاة الجمعة، وكانت جنازته حاشدة شهدها الآلاف من الناس ودفن فى بغداد رضى الله عنه وأرضاه.

***

الفهرس

AL AZHAR
MAGAZINE



المتن ٧٠ جم
الغلاف ١٥٠ جم كوشيه

شركة الإعلانات الشرقية دار الجمهورية للصحافة